

DVD4ARAB

قصص عالمية

عالم كيرالي

في الاصطبل



DVD4ARAB

كامل كيداني

قصص علمية

في الاضطربل

١- مسألة (كوميديا) في الاضطربل ٢- عالم الاضطربل

الطبعة التاسعة



دار المعارف

تصنيف

يَسُرُّنِي أَنْ أُهْدِيَ إِلَيْكَ - أَيُّهَا الْقَارِيءُ الصَّغِيرُ - طَائِفَةٌ مِنَ الْخَوَاطِرِ
الْمُبْدَعَةِ الَّتِي خَلَقْتُهَا لَكَ مُنْشِئَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ .

وَهِيَ - فِيهَا حَدَّثَنَا النُّفَاتُ الْأَنْبَاتُ (الْأَمْثَاءُ الْمُؤْتَوَّقُ بِهِمْ) مِنَ الرُّوَاقِ
الَّذِينَ تَقْلُوا عَنْهَا تِلْكَ الْخَوَاطِرَ الشَّائِقَةَ - فَرَسٌ مِنْ أَذْكَ الْأَفْرَاسِ الْمَرْيِيَّةِ
الَّتِي يُعْتَرِّهُ عَالَمُ الْإِصْطَبَالِ كُلُّهُ بِنَجَابَتِهَا وَأَمَانَتِهَا، وَتَفَخَّرُ الدُّوَابُّ جَمِيعًا بِطَيْبِ
عَنْصَرِهَا، وَشَرَفِ أَرْوَمَتِهَا (كَرَّمِ أَصْلَهَا، وَطَهَّرَ مَنَبَتَهَا) .

• • •

وَأِنْ «أَعْوَجَ» أَبَا الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ، لِيَفْتَخِرُ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْفَرَسِ
النَّجِيَّةِ، كَمَا يَفْتَخِرُ أَبُوْنَا : «آدَمُ» بِالنُّجَبَاءِ مِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ .
وَقَدْ نَشَأَتْ «أُمُّ سَوَادَةَ» بَطَلَةً قِصْنًا - وَاسْمُهَا : «قَسَامَةُ» - فِي

بَعْضِ بِلَادِ الرِّيفِ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ خَوَاطِرُهَا الْمُعْجِبَةُ .

حَدَّثَنَا صَدِيقُهَا «أَبُو زَيْادٍ» بِالتَّقْسِيمِ الْأَوَّلِ مِنْهَا ، وَغُثَاوَتُهُ : «سَلَاةُ (كُومُذِيَا) فِي الْإِسْطَبَلِ» ، كَمَا حَدَّثَنَا بِالْكَثِيرِ مِنْ طَرَائِفِ الْقِسْمِ الثَّانِي ، وَغُثَاوَتُهُ : «عَالَمُ الْإِسْطَبَلِ» .

ثُمَّ أَتَدَعُ زَمِيلُهَا : «دَهْمَانُ» فِيمَا زَوَاهُ لَهَا مِنْ أَخْبَارِ سَاحِلِهِ ؛ «أَبَى تَوَلَّبَ» الَّتِي خَتَمَتْ بِهَا «قِسَامَةُ» هَذِهِ الْقُصُولِ .

وَلَسْتُ أَذِيعُ (أُظْهِرُ) سِرًّا إِذَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّ قِسَامَةَ - وَكُنَيْتَهَا «أُمَ سَوَادَةَ» كَمَا عَرَفْتُ - قَدْ أَوْصَنِي بِإِعْدَادِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ إِلَيْكَ ، لِمَا رَأَيْتُهُ فِيكَ مِنْ حُبِّ الْقِرَاءَةِ ، وَالْمُدَاوَعَةِ عَلَى الْأَعْلَاجِ ، وَالْمُتَابَرَةِ عَلَى التَّخْصِيلِ . فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ إِشَارَتِهَا ، وَإِنْجَازِ وَصِيَّتِهَا .

وَلَا عَجَبَ أَنْ تَمَهَّدَ إِلَى «قِسَامَةِ» بِذَلِكَ ، بِمَذْمَا عَرَفْتَهُ - أَيْهَا الصَّدِيقُ الْفَرِيزُ - مِنْ مَرَايَاكَ النَّادِرَةِ ، وَخِلَالِكَ التَّيْلَةِ الَّتِي حَيَّنْتَكَ إِلَى نَفْسِهَا . فَأَنْتَ - فِيمَا تَعَلَّمَ «قِسَامَةُ» ، وَفِيمَا أَعْلَمُ أَنَا - جَدِيرٌ بِكُلِّ خَيْرٍ . وَقَدْ مَيَّزَكَ اللَّهُ - بَيْنَ أَتْرَابِكَ وَلِدَانِكَ (بَيْنَ أَفْرَانِكَ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ مُنْهَرَكٍ) - بِمِثْلِ مَا مَيَّزَ بِهِ «قِسَامَةَ» ، بَيْنَ أَتْرَابِهَا وَلِدَائِهَا ، مِنْ كَرِيمِ الْخِصَالِ ،

وَتَبِيلِ النِّزَابِ ، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ .

• • •

وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّكَ شَاكِرٌ لِهَذِهِ الْفَرَسِ الْقَتِيَّةِ (الشَّامَةِ الْقَوِيَّةِ) هَدِيَّتِهَا النَّفِيسَةَ ، قَادِرٌ (مُقَدَّرٌ) لَهَا بِحَبْلِهَا فِيكَ ، وَإِسْجَابِهَا بِكَ ، مُنْتَفِعٌ بِمَا قَدَّمَتْهُ إِلَيْكَ مُبْدِعَةُ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مِنْ سَيِّدِ الرَّأْيِ ، وَبَارِعِ الْأَمْلَاحَةِ ، وَصَادِقِ التَّوَجِّيهِ ، وَغَمِيضِ التَّفَكُّيرِ .

• • •

وَسَتَكُونُ فِي قَابِلِ أَيَّامِكَ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ - عَظِيمًا بَيْنَ الرِّجَالِ ، مَا دُمْتَ فِي حَاضِرِكَ عَظِيمًا بَيْنَ الْأَطْفَالِ ^(١) .

كامل كبريت

(١) تثبت هذه الكلمة كما أثبتناها في الطبقات السابقة .



١ - مَثَلَةٌ (كوميديا) في الإسطبل

شمس المساء (أشعاص الكوميديا)

الخنساء : بقرة جميلة، سمراء الشعر.

الجوازدة : عجلة عريفة، وهي بنت الخنساء.

أم الأشمت : عترة مرتفعة القرنين، طويلة النخية، مؤفزة النشاط، دأثة الجري، لا تكاد تستقر في مكانها لحظة.

أبو بغير : ابن العنز، وهو جدي في مستقبل شبابه.

أم قروة : نمجة ينساء.

الطللي : حمل (خروف قتي) مجعد الشعر، وهو ابن تلك النمجة.

أبو دلف : خنزير، مكفت الأنف (أنفه متضام، متكبب).

(هؤلاء جميعا في أسر الإسطبل)

أبو زياد : حمار.

لاحق : جواد، جميل، أثير.

ابن وازج : كلب الحراسة.

(هؤلاء في جانب من الإسطبل)

(في خارج الإسطبل أمام الفناء)

أَبُو زَيْدٍ : (احمار تخاطب العنز) : « حَذَار - يَا أُمُّ الْأَشْمَتِ - وَإِنَّا لَنَرُّ أَنْ تَتَمَادَيَ فِي هَذَا الْمَبْتِ . لَقَدْ أَرَعَجَيْنَا بِجَلَّاحِكَ هَذِهِ ... وَكَأَنَّمَا لَسَيْتِ مَا كَابَدْتُهُ



مِنَ النَّعَاءِ طُولَ الْيَوْمِ . أَلَا فَلَئِمَنِي - إِنْ لَمْ تَكُونِي تَعْلَمِينَ - أَتُنِي فَصَيْتُ نَهَارِي كُلَّهُ عَذْوًا (جَرِيًا) بِلا رَاحَةٍ ، وَفَدَّ بَرَّحَ بِي التَّبْ (أَذَانِي أَذَى شَدِيدًا) ، فَاصْبَحْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى النَّوْمِ ، فَالْتَبَيْ (انْكَبَيْ) فِي مَكَائِكَ هَادِئَةً سَاكِتَةً ، وَاخْذَرِي أَنْ تُكْذِرِي عَلَى صَفْوِ مَنَاسِي بِمَدَا ،

أُمُّ الْأَشْمَتِ : (احمار تخاطب الحمار) . « عَذْرَا - يَا أَبَا زَيْدٍ » - وَاصْفَحْ عَنْ زَاتِي ، وَتَجَاوِزْ عَنْ خَطِيئَتِي ، فَإِنِّي عَلَيْهَا جِدُّ غُلُومَةٍ ، وَمَا كُنْتُ لِأَنْمَدَ إِعْطَاكَ مِنْ سُبَاتِكَ (تَنْبِيْهِكَ مِنْ نَوْمِكَ) ، وَلَكِنَّهَا حَسْرَةٌ خَبِيْثَةٌ - لَسْتُ أَذْرِي مَا هِيَ - فَدَلَّغْنِي فِي رَجْعَتِي ، فَلَمَّا هَمَسْتُ بِدَلِّكُمَا ، وَرَفَعْتُ رِجْلِي - فِي خِفَّةٍ وَحَذَرٍ - لِأُخَفِّفَ أَثْرَ اللَّذْغِ - دَقَّ جَرَسِي - عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّي - فَأَيَقُظُكَ مِنْ نَوْمِكَ . »

الْخَفْسَاءُ : (البقرة تخاطب العنز) : (ذُفِعَ مِنْهَا الْكَبِيرُ لِيْنٍ وَفَدَّ تَمَلَّ مِنْهَا الْحَزَنُ وَالْأَلَمُ) :

« أَيْ جَلَبَتِ هَذِهِ ! أَلَا تَكْتَفِينَ - يَا أُمُّ الْأَشْمَتِ - عَنْ هَذَا الْقَبَبِ ؟ لَقَدْ أَرَعَجَيْنِي بِجَلَّاحِكَ ، وَأَقَطْتَنِي مِنْ سُبَاتِي (نَوْمِي) بِتِلْكَ التَّرَاوَةِ الْفَارِغَةِ وَالْكَلَامِ الْكَثِيرِ ! هَذَا اعْتَدَاهُ سَيِّجُ (تَجِيحُ) لَا أَطْلُقُهُ . أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّكَ أَصْنَعُ عَلَى الْعُلَمِ الْأَذِيذَ ، الَّتِي كُنْتُ أَنْعَمُ بِهِ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِي ؟ لَقَدْ تَمَثَّلَ لِي - فِي عَالَمِ الْأَخْلَامِ - يَوْمٌ سَعِيدٌ مِنْ أَيَّامِ الْخُرُوفِ ، لَمَّا أُنْسَى طَبِيْعَةَ مَا حَيَيْتُ فَقَدْ غَابَ عَنَّا « ابْنُ وَازِعِ » (نَعْيِ الْكَلْبِ) - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَخَرَجْتُ مَعَ بَنَاتِي « الْجَوْذَرَوِ » تِلْكَ الْعِجْلَةُ الظَّرِيفَةُ ، حَيْثُ قَعَيْنَا الْيَوْمَ كُلَّهُ نَاعِتِينَ بِأَكْلِ الْبَرَسِيمِ الْهَيِّ السَّائِفِ . فَلَمَّا جَاءَ النَّعَاءُ

ظِلَانَا نَمْرَحُ (اَشْتَدَّ فَرْحُنَا وَفَسَامُنَا حَتَّى جَاوَزَا الْقَدْرَ) فِي فِعْلِهِ الْجِيلِ
(فِي أَعْلَاهُ) ، بَيْنَ أَشْجَارِ الصَّنَوْبَرِ وَالشُّجْرِ الْكَبِيرَةِ . فَاكَانَ أَدْوَعَهُ
مِطْرًا ، وَمَا كَانَ أَطْيَبَ تِلْكَ الْأَزْهَارِ الشَّدِيَّةِ الْمُطْمَرَّةِ ... ثُمَّ سَمِينَا
مَوْتِ سَيِّدِنَا الْإِنْسَانِ يُبَادِيْنَا وَهُوَ فِي سَمْعِ ذَلِكَ الْجِيلِ الشَّامِخِ (الشَّدِيدِ
الارْتِفَاعِ) .

أَمْ فَرَوَةٌ : (لَمَّا نَظَرْتُ لِمَنْ) : « نَعَمْ - يَا أُمُّ الْأَشْمَثِ - لَقَدْ أَسَأْتُ إِلَيْنَا
بِمَا فَعَلْتِ ، وَأَيُّقُنَانَا جَرَسُكَ مِنْ نَوْمِنَا جَمِيعًا ، وَلَنْ نَسْتَطِيعَ الثَّوَمَ بَعْدَ
الْآنَ . وَلَيْسَ لَنَا مِنْ حِيلَةٍ نَنَحْوُهَا لِنَقْضِيَ الْوَقْتَ الْبَاقِيَ إِلَّا أَنْ نَجْتَزَّ شَيْئًا
مِمَّا اخْتَرْنَا ... مَا رَأَيْتُ الْخَنَسَاءَ فِي ذَلِكَ ؟ لَقَدْ خَزَنْتُ مَقْدَارًا كَبِيرًا مِنْ
الْحَسَائِشِ فِي جَوْفِي ! »

أَبُو زَيْدٍ : (الْحَدِيدُ مَخَالِبُ الْخَنَسَةِ) : « وَمَاذَا أُنْصَحُ الْآنَ ؟ وَكَيْفَ أُضَيِّعُ الْوَقْتَ ؟
أُنْسِيَتْ - يَا أُمُّ فَرَوَةٌ - أَنْ لَيْسَ لِي أَرْزِيعُ كُرُوشٍ مِثْلُ مَا لَكَ ؟
فَمَنْ لِي بِأَنْ أَجْتَزَّ كَمَا تَجْتَزِّينَ ؟ أَلَا تَنْظُرِينَ إِلَيَّ أَرْجُلِي ؟ إِنَّكَ لَوْ أُنْعَمْتَ
النَّظَرَ ، لَرَأَيْتَ أَنِّي مِنْ غَيْرِ فَصِيلَتِكَ وَمُطَائِفَتِكَ ، كَمَا أَنَّ صَدِيقِي
« لَاحِقًا » لَا يَجْتَزُّ كَذَلِكَ ، فَقَدْ وَقَانَا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - تِلْكَ الْمَادَّةُ

السَّبْقَةُ ؛ أَغْنَى أَنَا لَمْ نَمْتَدَّ أَنْ فَاكُلْ مَرَّتَيْنِ - كَمَا تَقْلِبِينَ - لِأَنَّكَ
تَأْكُلِينَ ثُمَّ تَجْزِينَ جُزْءًا مِمَّا أَكَلْتِهِ ، فِي كَرِيحِكَ (مَعْدَتِكَ ،
وَالْكَرِيحُ - لَدَى الْخُفِّ وَالظِّلْفِ وَكُلِّ مُجْتَرٍّ - بِمَنْزِلَةِ الْمَعِدَةِ لِلْإِنْسَانِ)
لَتَجْتَزِّيهِ وَقَدْ تَسَابَيْنِ . »

أَبُو ذَلْفٍ : (الْمَذْبُورُ) : « وَمَاذَا أَنَا صَافِعٌ أَيْضًا ؟ وَكَيْفَ أُضَيِّعُ الْوَقْتَ الْبَاقِيَ ، أَيُّهَا
الْإِخْوَانُ ؟ أُنْسِيَتْ - يَا أُمُّ فَرَوَةٌ (يَتْنَى النَّجْبَةُ) - أَنْ جَدِي وَأَبِي لَمْ
يَجْتَزَّا قَطُّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ لَنَا أَرْجُلًا مَشْقُوقَةً كَأَرْجُلِكَ ؟ وَلِهَذَا وَرَدْتُ
عَنْهُمَا أَنْ أَزْهَدَ فِي تِلْكَ الْمَادَّةِ الْمَرْذُوقَةِ ، فَلَمْ أُزِنَنَّ نَفْسِي عَلَيْهَا قَطُّ .

(تَسْبِغُ قِيَمَةُ الْمَلْفَةِ سَبْغَةً فِي وَسْطِ الْإِسْجَلِ ، لَا فِي الْعِلَلِ - ذَلِكَ الْجِيلُ الْعَمِدُ الشَّعْرُ - وَأَبُو جَعْفَرٍ -
ذَلِكَ الْحَدِيدُ الْخَدَّافُ - جَرَّهَا الْمَرَّاحُ إِلَى الطَّاحِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْرِيََا قَرِيبَهُمَا الصَّغِيرَةَ ، فَاتَّصَلَتْ وَالتَّصَقَّ
رَأْسَاهُمَا ، وَجَعَزَا عَنْ تَحْلِيصِ قَرِيبَهُمَا الْمُشْتَبِكَةِ)

الْعَلِيُّ : (الْحَدِيدُ) (بِصَوْتِ أَلِفٍ) : « لَا ... لَا ... ! »

أَبُو يَحْيَى : (الْحَدِيدُ ، مُتَعَفًا إِلَى الْأَمَامِ بِمُطَابِقِ الْحَدِّ) : « لَا مَنَاصَ (لَا خَلَاصَ) وَلَا
مَقَرَّ (لَكَ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِأَسَى وَفَوْتِي ، وَلَا بُدَّ أَنْ تُقَرَّرَ لِي بِالْعَلْبَةِ
عَلَيْكَ ! »

الْعَلِيُّ : (الْحَدِيدُ مَخَالِبُ الْحَدِّ) : « أَمَّا أَنْكَ أَفْوَى مِنِّي ، فَلَا ، وَكَذَبْتَ فِي

زَعَمْتَ ! وَإِنَّمَا أَنْتَ مُدْعِرٌ حَيْثُ .

أَبُو بَجِيرٍ : (المدح) : (يفرب عين الظل برأه فيلو سراج الظل المسكين) :

« طَلَى أَلَقَى ! »

الطَّلَى : (الحمل) : (بحر، إذ أنه ياكها) : « آى ! آى ! آى ! آى ! لقد قَعَا

الغَيْثُ عَيْنِي آه ! آه ! لقد عَوَّرَهَا (جَعَلَهَا عَوْرَاءً) . »

أُمُّ الْأَشْمَتِ : (الستر) : (ستر لسانها - قد بلغ بعوده - على قدم الظل) : « لَا عَلَيَّكَ

يَا وَلَدِي . لَا تَأَلَم . فَمَا بَكَ مِنْ سُوءٍ ، أَنَا عَلَى تَقَةٍ مِنْ سَلَامَتِكَ ، فَلَا

يَحْزُنُكَ مَا حَدَثَ ! فَإِنْ « أَبَا بَجِيرٍ » قَصَدَ إِلَى مُدَاعِبَتِكَ وَمَلَاطِفَتِكَ ، وَلَمْ

يُرْمِ إِلَى إِيْذَانِكَ . انْظُرْ إِلَيْهِ ، أَلَا تَرَاهُ عَزُونَاً وَاجِماً (سَاكِناً عَابِسَ

الْوَجْهِ مُشْتَمّاً) خَشِيَةَ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصِيبَتْ بِسُوءٍ ؟ »

أَبُو بَجِيرٍ : (المدح) : (يفرب) : « صَدَقْتَ - يَا أُمُّ الْأَشْمَتِ - وَبِالْحَقِّ

نَطَقْتَ ، فَاقْصِدْتُ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ الدُّعَابَةِ وَالزَّرَاجِ ، فَهَلْ أَصَبْتُكَ بِأَدَى

يَا رَفِيقِي الطَّلَى ! اصْفَحْ عَنِّي يَا عَزِيزِي . »

الطَّلَى : (الحمل) : (لا يهتك من بكائه) : « مِئ ! مِئ ! مِئ ! مَا زِلْتُ عَيْنِي

تَوَجُّعِي . »

أَبُو بَجِيرٍ : (المدح) : « إِنِّي خَفَفْتُ أَمْرَكَ ، فَادْنُ (اقْتَرِبْ) مِنِّي لِأَلْحَسَا

(لِأَلْتَقِمَا) لَكَ . . . أَلَا تَشْتَرُ بِرَاحَةِ الْآنَ ؟ أَلَا تَرَاهُ حَافِداً

عَنِّي يَا رَفِيقِي ؟ »

الطَّلَى : (الحمل) : (يمكن ويهتك من بكائه) : « لَا عَلَيَّكَ فَقَدْ نَسِيتُ مَا فَاثَ

- يَا أَبَا بَجِيرٍ - وَلَكِنْ لَا تَقْدُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى . »

(تنفذ الأبواب كلها ويورثها مفرقة مسلسلة)

أَبُو زِيَادٍ : (الحمار) : « مَاذَا فَضَعْتُ يَا أَصْحَابِي ! لَقَدْ تَأَخَّرَ بِنَا الْوَقْتُ ، أَلَا تَرَوْنَ

ذَلِكَمُ الضُّوءَ الَّذِي يُشِيعُ (يَنْفُشُ شَمَاعَةً) مِنَ النَّافِذِ ، إِنَّهُ ضَوْءُ الْقَمَرِ

السَّالِجِ . وَأَنَا عَلَى تَقَةٍ أَنَا لَنْ نَنَامَ طُولَ هَذِهِ اللَّيْلِ ، وَهِنَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ

فَلَنْ أَقْلَيْتَ مِنَ الصَّخْرِ مَبْكَراً فِي الصَّبَاحِ التَّالِي ، لِأَخِيهِ الْبَلْبِ

إِلَى الْمَدِينَةِ . »

الْخَفْسَاءُ : (البقرة مسخطة الحمار) : « إِنَّكَ سَتَمَلُّ كَمَا يَمَلُّ سَيِّدُكَ - يَا أَبَا

زِيَادٍ - أَلَمْ تَقُلْ لِي ذَلِكَ الْيَوْمَ إِنَّهُ قَضَى وَقْتَهُ نَامِماً طُولَ الطَّرِيقِ ؟ »

أَبُو زِيَادٍ : (المسخر مسخطة البقرة) : « صَدَقْتَ - يَا سَيِّدَتِي الْخَفْسَاءُ - وَلَكِنْ

لَا تَنْسَى أَنِّي مَشْتُولٌ عَنْ سَلَامَتِهِ ، وَأَنِّي جَدِيرٌ بِالثَّبَرِ وَالْيَقَظَةِ فِي أَثْنَاءِ تَوْبِهِ .

أُمُّ الْأَنْشَمَتِ : (العز ، تلفظ إلى التمس) : « إيه ! ماذا بكِ يَا أُمُّ فَرَوَةَ ؟ مَا بَالُكَ تَرْجُفِينَ ؟ أَمْرِيضَةٌ أَنْتِ ؟ »

أُمُّ فَرَوَةَ : (السبية معالجة العز) : « كَلَّا يَا صَاحِبَتِي ، مَا أَنَا بِمَرِيضَةٍ ، وَلَكِنَّ الْبَرْدَ يَكَاذُ يُنْهَلِكُنِي ، فَاقْرِئِي مِنِّي ، وَاتِّكِنِي عَلَى لَأْسْتَذِقُ بِجَسَدِكَ ، وَأُدْفَعُ بِكَ عَائِلَةَ الْبَرْدِ (شِدَّةُ التَّهْلِكَةِ) . »

أُمُّ الْأَنْشَمَتِ : (العز) : « بَكْلَ سُرُورٍ يَا عَزِيزَتِي ! »

الْخُلَسَاءُ : (القربة تعامل التمس) : « عَجِيبٌ أَنْ تَشْمُرِي بِالْبَرْدِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، عَلَى حِينٍ لَمْ تَشْمُرِي بِذَلِكَ أَمْسٍ وَمَا سَبَقَهُ مِنَ الْأَيَّامِ ؟ وَحَيْبٌ مَا حَدَّثَ لَكَ الْيَوْمَ يَا صَاحِبَتِي لَقَدْ أَنْكَرْتُكَ (جَهْلُكَ) إِذْ رَأَيْتُكَ تَدْخُلِينَ الْإِصْطِيلَ — هَذَا السَّاءُ — وَقَدْ تَبَدَّلْتَ هَيْئَتُكَ ، حَتَّى اخْتَلَطَ عَلَى أَمْرِكَ ! الْاِتِّمُونُ وَأَيُّ أَثْنَاءِ الصَّاحِبَاتِ ؟ »

أَبُو زَيْلَادٍ : (الحمار يتألم البرد) : « بَلَى — أَثْنَاءُ الْعَزِيزَةِ — إِنَّا عَلَى رَأْيِكَ نُجْهِمَاتُ فَقَدْ أَنْكَرْتُهَا كَذَلِكَ حِينِ رَأَيْتُهَا . وَسَأَلْتُ نَفْسِي مَذْمُوسًا : تُرَى

مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الرَّفِيقَةُ الْجَدِيدَةُ ؟ قَدْ بَدَأَ جِسْمُهَا صَغِيرًا مَهْزُولًا ... وَلَكِنَّ صَدِيقِي « لَاحِقًا » (يَعْنِي : الْجَوَادُ) ، أَخْبَرَنِي أَنَّ سَيِّدَهَا الْإِنْسَانَ قَدْ أَمَرَ بِقَصِّ صُورِهَا الْجَمِيلِ فِي هَذَا النَّهَارِ . »

أُمُّ فَرَوَةَ : (التمس) : (صوت محزون) : « صَدَقْتِ يَا رَفِيقَاتِي الْعَزِيزَاتِ . لَقَدْ أَصْبَحْتُ عَارِيَةً ، نَمَّ جِدَّ عَارِيَةٍ مِنْ تَوْبِي الْفَلِيطِ . قَدْ تَزَعَّ أَحَدُ الرِّجَالِ عَنْ جَسَدِي تَلَكُّنَ الْخُصَلِ الْجَمِيلَةِ ، وَهِيَ جَاعَاتُ الشَّعْرِ الَّتِي كُنْتُ تُعْجِبُنِي بِهَا ، وَلَمْ يَدَعْ لِي مِنْهَا إِلَّا خُصْلَةً صَغِيرَةً مِنَ الشَّعْرِ فِي طَرَفِ الْفَقِيلِ . وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَى الْخُزْنِ الشَّدِيدُ ، مُنْذُ حُرُمْتُ هَذَا الْيَكْسَاءِ الْبَدِيعِ . فَلَقَدْ كَانَ لِي نِعَمُ التَّوْبِ الْمُدْفِي : يَقْنِي غَائِلَةَ الْبَرْدِ . فَلَمَّا حُرِمْتُهُ ، سَرَّتِ الرَّغْدَةُ (الرَّقْشَةُ وَالْاضْطِرَابُ) فِي جَسَدِي حَتَّى كِدْتُ أَعْجزُ عَنِ الْحُضُورِ إِلَى هُنَا . »

(الجميع : صوت واحد) :

« لَكَ اللَّهُ يَا أُمُّ فَرَوَةَ ... مِسْكِينَةٌ أَنْتِ أَيُّهَا الْعَزِيزَةُ »

أَبُو دُلْفٍ : (العزير) : « لَيْسَ عَجَبًا أَنْ مَثَلُوا بِكِ — يَا أُمُّ فَرَوَةَ (صَنَعُوا بِكِ مِنْ الشُّوْءِ مَا يَلْفِتُ النَّظَرَ) — فَلَقَدْ طَالَمَا حَدَّثْتُكَ بِبَنْدَرِ الْإِنْسَانِ

وَأَنَا بَيْتِي (كَبِيرًا) وَشِدَّةَ حَيِّ لِنَفْسِي ، هُوَ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى
كُلِّ مَا مَخْلُوكٌ ، وَيَسْتَأْذِنُ (يَنْفَرِدُ) بِطَيِّبَاتِنَا ، وَلَا يَتْرُكُ شَيْئًا إِلَّا
اتَّعَمَّ بِهِ ... آوَى إِلَهُ اللَّهِ مِنْ شَرِّهِ (شَدِيدِ الْحَرِّ) مَلْبَاجٍ ! أَوْ كَذَّ
لَكَ يَا أُمُّ الْأَشْمَثِ : أَنَّ الْإِنْسَانَ - إِذَا فَقَدْنَا وَحَرَمَ خِدْمَتَنَا إِنَاءَهُ -
أَصْبَحَ عَزْزُونًا كَالِيفِ الْبَالِ (سَيِّئِ الْحَالِ) . وَاقْلَبَ زَهْرَهُ وَخَيَلَاوَهُ
(إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ وَكِبَرِيَاوَهُ) ذَلَّةً وَانْكِسَارًا . وَلَوْلَا سُوءُكَ الْجِيلِ ،
لَمَاشَ الْإِنْسَانُ عَارِيًا كَمَا تَمْرَى الضَّغْدِغُ ... »

لَاجِقٌ : (اِبْتِلَاءٌ) : (بِنَاءٌ) : « مَهْ - يَا أَبَا ذَلْفَ - وَخَذَارِ أَنْ تَذُمَّ
الْإِنْسَانَ أَمَامِي ، فَهُوَ خَيْرٌ مَنَحَ كَرِيمٍ وَفَدَّ عَمْرُنَا بِمُطْفِعِهِ وَجَبُّهُ . أَفَأَمُّ
أَنْتِ ! إِنَّهُ سَيِّدُنَا وَأَنَا أَحْمَدُهُ الْعُصْبُ (أَلْخِصُّ لَهُ الْوُدَّ) ، وَلَا آذَنُ لَكَ
فِي اغْتِيَابِهِ وَتَنَقُّصِهِ (التَّحْدِثِ فِي غَيْبِهِ بِمَا يَكُونُ) ، فَخَذَارِ أَنْ تَسَرَّ
سَمْتَهُ بِسُوءِ ! »

أَبُو ذَلْفَ : (اِعْتِرَاضٌ) : « إِذَا صَحَّ مَا تَقُولُ ! وَاعْتَرَفْنَا لِلْإِنْسَانِ بِسَيِّئَاتِهِ عَلَيْنَا ،
مَقْدَسَجَلْنَا عَلَى أَتْفِينَا أَنْتَا أَذِلَّةً جَبْنَاءَ . فَمَنْ لَنَا بِالْإِتِّحَادِ وَالتَّضَافُرِ ؟ آوَى !
لَوْ تَحَقَّقَ هَذَا الْعُلْمُ الْجَلِيلُ ، وَأَصْبَحْنَا جَمِيعًا يَدًا وَاحِدَةً ! إِذْنُ لَقَهَرْنَاكَ ،

وَعَلَيْنَاهُ عَلَى أَمْرِهِ . فَإِنَّ لِي نَحَابَ قُوَّةٍ فَارِيكُ ، تُشْبِهُ الْكَلَالِيْبَ (وَهِيَ :
حَدَائِدُ مُلْتَوِيَةِ الرَّأْسِ) ، وَلَأُمُّ الْأَشْمَثِ قَرْنَيْنِ كَبِيرَيْنِ لَا يَبْلَى (لَا قُدْرَةَ)
لَهُ بِمَقَاوِمَتَيْهَا . فَطَوَّحَتْ عَزِيَّتَنَا
وَتَرَكْنَا الْحَبْنَ وَالْعَوْرَ (الضَّمْفَ)
جَانِبًا ، لَا نَتَصَرَّنَا عَلَيْهِ ، وَأَصْبَحْنَا
سَادَةً فِي هَذَا الْمَكَانِ . وَأَبْنُ حَيَاءِ



السَّادَةِ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ الْأَرْفَاءِ ؟ وَمَنْ لَنَا بِالتَّضَافُرِ ، لِنَقَهَرَ (نَقْلِبَ)

هَذَا السَّيِّدَ، وَتُصْبِحُ أُولَى الْأَمْرِ فِي هَذَا الْمَكَانِ: تَسْتَقِطُ مَعِيَ شَيْئًا، وَهَابِلُ
مَنْ شَيْئًا مِنَ الْأَصْدِقَاءِ وَالْخُلَمَاءِ، وَتَقَرُّ مَعِيَ عَلَى الْإِنْسَانِ طَاعَتًا وَسَادَاتًا ۝
لَا يَزِيحُ : (الجمود) : (غالبًا يضرب الأرض شبيهة بعمر الحفيدة في الحفار) . « يَا لَكَ مِنْ جَلِيدٍ ،
مُتَكَبِّرٍ لِلْجَبِيلِ ، يَا أَبَا دَلْفَ »

أَبُو دَلْفَ : (العزيز غاصبًا الجمود) . « مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ يَا لَاحِقُ ! أَنْتَبَيْتَ أَنَّ
الْإِنْسَانَ يَسْتَلْزِمُنَا نَاقَتَنَا وَيَقْتَصِبُ مَا هُوَ حَقُّ لَنَا . وَلَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ
تَمْلِكُهُ إِلَّا اسْتَأْذَنَ (اخْتَصَّ نَفْسَهُ) بِهِ ؟ أَلَا تَعْلَمُونَ - أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ -
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا بُنْيَا (ظُلْمًا) مِنْهُ وَعُدْوَانًا ؟ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَمِثُلُ
الشَّرِّ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَيْسَ فِي دَوَابِّ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بُدِئَ فِي شَرِّهِ وَأَنَا بَنِيَّةُ ،
فَهُوَ دَائِبٌ عَلَى أَكْلِ الْفَطَائِرِ الْمُسْكِرَةِ ، وَالْعُلُوقِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ .
كَلَّا يَا أَعِزُّنِي ، إِنَّمَا يَمُرُّ لِي مِنْ فَضْلَاتِهِ مَا يَتَخَيَّرُ لِي ؟ وَاسْتَمِعُوا لِي أَن
أَسْأَلَكُمْ : لِمَاذَا لَا يَأْكُلُ الْحَشَائِشَ كَمَا نَأْكُلُهَا عَلَى شَوَاطِئِ الْعُذْرَانِ
وَالْمَنَاقِعِ (وَهِيَ تَجْمَعُ مُسْتَنْقَعٌ : مَكَانٌ يَلْتَقِي فِيهِ الْمَاءُ وَيَكْثُرُ) ؟ كَلَّا ، إِنَّهُ
لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ ، بَلْ يَسْتَأْذِنُ (يَخْصُ نَفْسَهُ) بِلَذَائِذِ الْأَعْلَمَةِ ، وَطَلِيَّاتِ

الْخُلُوصِ ! آمِنْ لَهُ ، وَوَامِنْهُ ، أَيُّهَا الْخُلَمَاءُ الْأَعِزُّو ! أَنْتَسَبِرُونَهُ يُؤْثِرُنَا فِي
دَارِهِ ، إِشْفَاقًا عَلَيْنَا وَرِأْفًا بِنَا ؟ شَدَّ مَا أَحْسَنْتُمْ بِهِ الظَّنَّ الْكَذُوبَ ،
وَشَدَّ مَا خَدَعْتُمْ أَوْهَامَكُمْ ، وَكَذَبْتُمْ أَخْلَاصَكُمْ ! إِنْ جِدَّ خَيْرٌ
بِمَعِيرِي (عَارِفٌ غَايَةُ أَمْرِي حَقُّ التَّعْرِيفِ) . وَلَسْتُ أَجْهَلُ كَيْفَ
تَكُونُ خَاتِمَةُ حَيَاتِي النَّاسِعةَ عَلَى يَدِ هَذَا الْغَادِرِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبِيلِ . فَإِنَّهُ مَعِيَ
أَقْبَلَ قَمَلُ الشَّوَاهِدِ ، وَبَرَدَ الْجَوْ ؛ وَرَأَى سَيِّئًا مُمْتَلِئًا الْجِسْمِ ، مُتَكَبِّرًا
اللَّحْمِ ، (لَحْمِي مُتَجَمِّعٌ مُتَمَلِّبٌ) لَمْ يَزِدْ فِي ذَبْحِي ... »

لَاحِقُ : (الجمود) : « طَالَمَا حَدَّثَنِي أُمُّكَ - وَهِيَ حَارِثَةُ ذَكِيَّةُ وَشَيْدَةُ -
أَنَّنَا لَمْ نُخْلُقْ إِلَّا لِنَخْدُمَ سَيِّدَنَا الْإِنْسَانَ . فَيَتَأَمَّنُ بِخُدْمِهِ فِي حَيَاتِهِ وَمَيِّتًا
مِنْ يَخْدُمُهُ بَعْدَ تَمَاتِهِ . وَمَيِّتًا مِنْ يَخْدُمُهُ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ عَلَى السَّوَاءِ
وَحَيًّا هَذَا شَرَفًا وَتَجَدُّدًا . فَلَيْسَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ نُسَلِّكَ فِي عِدَادِ النَّافِعِينَ !
وَمَا أَعْدَبَ النَّوْتَ وَأَهْنَأُ إِذَا عَقَبَتْهُ الثَّفَعُ وَالْخَيْرُ لِلنَّاسِ ! »

أَبُو دَلْفَ (العزيز) : « هُوْمُ ! هُوْمُ ! أَتَقُولُ : « مَا أَحَلَّى النَّوْتَ » ؟ .
يَا لَكَ مِنْ أَبْنَةِ عَمِّي ! فَتَقِي يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَائِي فَأَلْفَيْكَ (أَلْقَاكَ أَسْمَى)
مَذْبُوحًا ! عَلَى أَنِّي أَدْعُ لَكَ رَأْيَكَ ، وَأُكَشِّفُكَ : إِنِّي لَا أَرَى مَا تَرَاهُ ! »

لاحيق : (المجاد) (طالب العزيز) : « شَدَّ مَا أَضَلَّكَ الرَّمْضُ ، وَأَحْمَاكَ الْهَوَى
يَا أَبَا دَلْفٍ - فَأَنَا أَقْضَى حَيَاتِي كُلَّهَا جَدًّا عَامِلًا ، دَائِبًا عَلَى احْتِمَالِ
الْتَشَقُّعِ وَالنَّهْا بِصَبْرٍ حَسِيبٍ ، عَلَى حِينٍ تَقْضِي حَيَاتَكَ شُكْلَهَا مُتَبَطِّلًا
(مُتَبَطِّلًا) كَسَلَانٍ : نَأَى كُلُّ وَتَشْرَبُ وَتَنَامُ ، ثُمَّ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ .
أَفَلَيْتَ مِنَ الْمَذَلِّ أَنْ تُذَيِّعَ ، مَا دُمْتَ لَمْ تُسَدِّ إِلَى أَحَدٍ (لَمْ تُقَدِّمْ لَهُ)
فَائِدَةً أَوْ قَفَا طَوْلَ حَيَاتِكَ ؟ وَآيُ فَائِدَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ لِكَاثِرٍ كَانَ إِذَا لَمْ
يَنْفَعِ غَيْرُهُ ؟ » .

أَبُو دَلْفٍ : (العزيز) (طالب المجاد) : « إِنِّي لِأَوْرِي (أَخْتَارُ) أَنْ أَعْمَلَ بِمِثْلِ عَمَلِكَ
- يَا سَيِّدِي « لا حيق » - حَتَّى لَا تَنْتَهَمَ حَيَاتِي بِالذَّبْحِ ، وَلَكِنِّي - كَمَا
تَرَى - سَمِينُ الْجِسْمِ ، كَثِيرُ الشَّخْمِ ، بَعْلِي ، الْحَرَكَةُ ، كَثِيرُ النَّوْمِ ،
وَلِلذَلِكَ لَا أَنْشَطُ إِلَى التَّمَلُّكِ كَمَا تَنْشَطُ أَنْتَ . عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ خَطِيئَةٍ ،
وَلَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي قَدَمِي ، وَقَدْ كَانَ أَبِي يَقُولُ : إِنَّا لَا نَنْفَعُ فِي أَمْنَاءِ
حَيَاتِنَا ، حَتَّى إِذَا هَلَكْنَا أَصْبَحْنَا نَافِعِينَ ! »

أَبُو زِيَادٍ : (المجارد) : (بسمك وهو يرفع يده للهفة) : « إِنَّكَ لَا تَنْفَعُ أَحَدًا ، فِي
حَيَاتِكَ وَمَوَانِكَ أَبَدًا ، فَلَا تَفْخَرْ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّكَ أَقْدَرُ دَوَابِّ الْأَرْضِ

وَأَشَدُّهَا وَقَاحَةً ، وَقَدْ كُنْتُ - وَلَا تَرَالُ - مَضْرِبَ الْقَتْلِ فِي الشَّرِّ ،
وَالسَّاجَةِ ، وَالرُّجْسِ (القدَّر) ! »

أَبُو دَلْفٍ : (العزيز) : « لَقَدْ دَخَلْتُ الْمَطْبِخَ - ذَاتَ يَوْمٍ - فِي غَيْبَةِ « ابْنِ
وَازِعٍ » - (الكتب) - فَرَأَيْتُ مَا مَالَنِي (فَرَعَنِي) ... »

أُمُّ الْأَشْمَتِ : (السند) : « أَدَخَلْتُ الْمَطْبِخَ ... أَوْه ! وَلَمَّا دَخَلْتُ الْمَطْبِخَ ؟ آه !
لَوْ رَأَى سَيِّدُكَ هُنَاكَ ... إِذْ لَأَمَرَ بِذَبْحِكَ ، جَزَاءَ هُجُومِكَ وَتَمْدِيدِكَ ! »
أَبُو دَلْفٍ : (العزيز) : (جاءه) : « لَا يَسْخَرُ أَحَدٌ مِنِّي أَقُولُ - لَقَدْ دَخَلْتُ
الْمَطْبِخَ ، وَأَجَلْتُ (أَذْرْتُ) بِعَرِي فِيهِ ، فَرَأَيْتُ - وَيَالْهَوْلَ مَا رَأَيْتُ -
أَكْبَاسًا صَغِيرَةً مَمْلُوءَةً لَحْمًا ، وَإِلَى جَانِبِهَا أَرْجُلُ صَدِيقَتِنَا الْعَزِيزَةِ
« الْجَوَزَاءِ » : التَّبَعَةُ الطَّرِيفَةُ الَّتِي فِي وَسْطِهَا يَاضُ . وَقَدْ كُنَّا نَأْتِسُ بِهَا
مُنْذُ أَيَّامٍ . فَفَرَّغَتْ وَهَرَبَتْ مُسْرِعًا إِلَى فِنَاءِ الدَّارِ ، (وَهِيَ السَّاحَةُ
الَّتِي أَمَامَهَا) . »

الْخَنَسَاءُ : (الهدية) : « مَا أَفْطَحَ مَا تَقَعُّهُ عَلَيْنَا يَا أَبَا دَلْفٍ ! »
أَبُو دَلْفٍ : (العزيز) : « إِنِّي أَحَدْتُكَ كُنْ بِمَا رَأَيْتُهُ عَيْنَايَ ، وَأَنَا وَاقِعٌ مِمَّا
رَأَيْتُ ، كَمَا أَتَى أَنْ لِي أَذُنَيْنِ . فَكَلَّمْتُنَا - يَارَفِيقَايَ الْعَزِيزَاتِ -

أَنْ مَصَارِعَنَا وَشِيكَا (أَنْ أَيْامَ دُحْنَا قَرِيَّة) لَا مَفَرَّ مِنْهَا ، فَلَا يَذْهَبُ شَيْءٌ
ذَلِكَ يَا «جُودُورَةُ» ! .

الجودورة : (مسلة) : « مَا أَحْسَبُهُمْ يَسْتَطِيعُونَ ذَنْبِي ، فَإِنِّي عَلَى تَهَمَةٍ مِنْ
قَدَرَةٍ أُمِّي عَلَى حِمَايَ ، لِأَنَّهُ سَتَنْطَعُهُمْ بِقَرْنَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ ، أَلَيْسَ
كَذَلِكَ بِأَمْلَةٍ ؟ عَلَى أَنِّي أَعَاهَدُكُمْ أَنِّي لَنْ أَرْكَبَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ
بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ ، وَلَنْ أَكُلَ شَيْئًا مِنَ الْبَلَجِ الَّذِي يُهْدِيهِ إِلَيَّ «سَادُ»
- بِنْتُ سَيِّدِنَا الْإِنْسَانِ - مَا دَامَ النَّاسُ عَلَى وَثَلِ مَا وَصَفْتَ مِنَ اللَّوْمِ
وَالنَّدْرِ يَا «أَبَا ذَلْفَ» ! .

لاحق : (الغراء) : (بقرار) : « أَصْنَعُوا إِلَيَّ - يَارِفاق - فَإِنِّي أَكْبَرُكُمْ
سِنًا ، وَأَغْرَفُكُمْ بِالنَّاسِ ، وَأَخْبَرُكُمْ بِالْحَيَاةِ ؛ لِأَنِّي قَدْ عِشْتُ أَكْثَرَ
مِمَّا عِشْتُمْ ، وَبَلَوْتُ (جَرَبْتُ وَاسْتَخْبَرْتُ) مِنْهُمْ الْعُطِيبَ وَالْخَبِيثَ .
وَيَجِبُ أَنْ تَقْلَعُوا أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ كَرَمًا وَلَوْعًا ، كَمَا تَخْتَلِفُ الثَّوَابُ
سِوَاهُ بَسَاوِ . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَذَقُّهُمْ الْقَسْوَةُ إِلَى إِجْهَادِنَا (إِتْمَانِنَا)
- بِلا رَحْمَةٍ - فَلَا يَتَأَنُّونَ (لَا يَكْفُونَ عَنِ الْإِثْمِ) ، وَلَا يَخْشَوْنَ مِنْ
إِعْثَاتِنَا وَإِرْهَاتِنَا وَضَرْبِنَا ، وَلَا يُبَالُونَ مَا كَابَدْنَاهُ مِنَ التَّمِيْبِ وَالْمَشَقَّةِ

وَالضَّرِّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَلَطَّفُونَ بِنَا ، وَيَدَاعِبُونَا مُتَوَدِّدِينَ .
وَسَيِّدُنَا مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ الطَّاهِرِ الْقَلْبِ ، الْكَرِيمِ



النَّفْسِ . فَهُوَ دَائِبٌ عَلَى مُدَاعِبَتِنَا وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْنَا ،
وَلَا يَكَادُ يَخْلُو جَنِينَهُ مِنْ قِطْعَةٍ مِنَ الْخُبْزِ أَوْ
الشُّكْرِ أَوْ الْبَلَجِ يَهْدِيهَا لَنَا مُتَلَطِّفًا ، لِرَفَقَةِ عَنَّا

(يُخَفَّفُ مِنْ آلاَمِنَا) . فَلَا غَرْوَ (لَا عَجَبَ) إِذَا أَحْيَيْنَاهُ حَيًّا جَمًّا
(كَثِيرًا) ، وَبَذَلْنَا حَيَاتِنَا فِدَاءً لَهُ . أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا أَتَاهَا الْإِخْوَانُ ؟

[الجميع يفرحون كلامه ويصبحون مصلحين مؤلفهم ، فتصور البقرة ، ويهتق الحمار ، وتنفق النملة والتمتر والحمل والحمى ، أما الخنزير فلا يفرح هذا الرأي فيضع في دكان من الاسطبل .]

أَبُو دَلْفٍ : (الحزير) : (بعد فترة من العنت) : « صَدَقْتُ يَا لَاحِقُ ، وَلَكِنْ
لَا تَقُلْ : إِنَّكَ جَدِيرٌ أَنْ تُفْنِيَ مُعْزَكَ فِي الْمَمَلِّ لِأَجْلِهِ . »

لَاحِقُ : (الهواد) : (هارًا عله الطويل ، وموشر رقة) : « مَا مَعْنَى هَذَا ؟ وَأَيُّ غَضَاضَةٍ
(ذِلَّةٍ) فِي أَنْ يَطْلُقَ الْفَرْدُ مِنَّا عَامِلًا كَادِحًا (جَاهِدًا نَفْسَهُ فِي التَّمَلِّ) طُولَ
حَيَاتِهِ ؟ أَلَمْ نَطْلُقْ لِنَمَلِّ ؟ وَمَا مَعْنَى وُجُودِنَا فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ نَوْذُ قِسْطَنَا
(نَعِيبِنَا) مِنَ الْوَاجِبِ ؟ أَلَا قَتَلْنَا - يَا أَبَا دَلْفٍ - أَنْ شَبَّنا وَاحِدًا يُؤَفِّرُ
لَنَا السَّعَادَةَ (يُكْثَرُهَا لَنَا) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ : التَّمَلُّ . أَلَا تَرَى
التَّمَلُّ فِي يُؤَيِّتُهُ دَائِبًا عَلَى السَّمْعِ فِي جِدِّهِ وَنَشَاطٍ ؟ أَلَا تَرَى التَّمَلُّ يَمْتَعُهُ
الْأَزْهَارُ ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ رَوْضَةٍ إِلَى أُخْرَى ، لِيُيَذِّعَهَا شَهْدًا (عَسَلًا) سَائِمًا
لِلْأَكْلَيْنِ ؟ أَلَا تَرَى الْمَصَافِيرَ دَائِبَةً (مُسْتَمِرَّةً) عَلَى بِنَاءِ أَوْكَارِهَا ؟ أَلَا
تَرَى الْأَشْجَارَ تَمُو لِتُظِلِّلَ النَّاسَ وَتَقِيَهُمْ غَالَةَ الْحَرَارَةِ ؟ أَلَا تَرَى

الشَّمْسُ دَائِبَةً عَلَى الطَّلُوعِ - كُلُّ يَوْمٍ - لِنُدْفِقَنَا وَتُبْرَ لَنَا سَبِيلَ الْحَيَاةِ ؟
أَلَا تَرَى النَّاسَ يَكْذِبُونَ وَلَا يَفْتَرُونَ (لَا يَهْدُونَ) عَنِ التَّمَلِّ ؟

الْخَنَسَاءُ : (البقرة) : « مَا هَذَا الْكَلَامُ يَا لَاحِقُ ؟ أَرَأَيْتَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ
يُحْرِ الْمَخْرَاتِ كَمَا تَحْرِهُ أَنْتَ ؟ »

أَبُو زَيْدٍ ، (الحمار) : « أَوْ كَمَا أَجْرُهُ أَنَا يَا خَنَسَاءُ ؟ أَلَيْسَتْ أُنْثَى أَجْرُ
الْمَحَارِثِ أَيْضًا ؟ »

الْخَنَسَاءُ : (البقرة) : (ولم تسع كلام ابن زياد) : « ثُمَّ إِنَّهُمْ يَضْرِبُونَكَ - يَا لَاحِقُ -
وَيُلْغَمُونَ جِسْمَكَ بِسِيَاطِهِمْ (جَمْعُ سَوْطٍ ، وَهُوَ مَا يُضْرَبُ بِهِ مِنْ جِلْدٍ
أَوْ غَيْرِهِ) ، فَا أَفْسَلُمْ وَأَغْلَظَ أَكْبَادُمْ ! »

لَاحِقُ : (الهواد) ، (من فرود) : « كَلَّا يَا خَنَسَاءُ ، لَقَدْ كَذَبْتُكَ طُنُوتُكَ ، فَإِنَّ
سَيْدِي لَا يُلْغَمُ جَسَدِي بِسَوْطِهِ - كَمَا تَزْعُمِينَ - بَلْ يَكْتَنِي بَأَنِّ
يَسُّ جَنْبِي بِطَرْفِ سَوْطِهِ - فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ - لِيَحْتَنِي عَلَى الْعَذْوِ
(لِيَدْعُوَنِي إِلَى سُرْعَةِ الْجَرِيِّ) فَلَا يَكَاذُ يَمْسِي وَشَيْبُ سَوْطِهِ (طَرَفُهُ)
حَتَّى أَتَطْلُقَ فِي عَذْوِي كَالرَّيْحِ ، وَلَسْتُ أَشْكُو شَيْئًا مِنْ هَذَا السَّيِّدِ
الْكَرِيمِ ، بَلْ أَرَانِي جِدَّ سَيِّدٍ فِي دَارِهِ ! »

أَبُو دَلْفَ : (الغدير) « لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ يُعْنُونَ بِكَ لِجَمَالِكَ وَرِشَاقَتِكَ وَحُسْنِ قَوَائِمِكَ ، فَهَمَّ يَفْسِلُونَ جَسَدَكَ وَيَنْطَقُونَهُ ، وَيُرْجِلُونَ شَعْرَكَ (يَسْطُطُونَهُ) أَنَا » أَبُو دَلْفَ : « الْبَشَرُ ، فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ يُفْنِي بَأَنَرِهِ ، أَوْ يَأْبَاهُ (يَهْتِمُّ) لِشَأْنِهِ . وَلَيْتَهُمْ يَفْسِلُونَ جَسَدِي - بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرٍ - كَمَا يَقْبَلُونَ مَمْلَكَ . إِذَنْ أَصْبَحَ فِي مِثْلِ جَمَالِكَ وَرِشَاقَتِكَ . »

لاحق : (الغدير) ، « يَا ابْنَ عَمِي يَا أَمَارِيادُ ! أَوْ تَطْشَى لَا أَفْعُ النَّاسَ - بَعْدَ مَوْتِي - كَمَا أَفْعَمُهُمْ فِي حَيَاتِي ؟ لَقَدْ أَعْجَبْتُمْ بِشَعْرَى السُّدَى عَلَى رَجَبِي ، كَمَا أَعْجَبْتُمْ بِذَيْلِي الطُّوبِيلِ الَّذِي أَهْمُّ بِهِ الذُّبَابُ ، فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيْدِي يَتَّخِذُ - مِنْ هَذَا الشَّعْرِ - زِينَةً لِسُرِيرِهِ . »

أَبُو دَلْفَ : (الغدير) ، « أَوُه ! إِنِّي أُرَى لَكَ مُتَمَرِّقًا أَنَّ الْإِنْسَانَ ذَكَرٌ بَارِعٌ ، وَأَنَّهُ خَيْرٌ بِكُلِّ مَا يَمُودُ عَلَيْهِ بِالْفِئِجِ الْجَزِيلِ . فَهُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُفْنِي بِنَفْسِهِ ، وَيَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَا يَكْتَنِفُهُ (يُحِيطُ بِهِ) مِنَ الْحَيَوَانِ وَالثَّابِتِ فَلَا عَرَوْ إِذَا عَمَرَ (طَالَتْ حَيَاتُهُ) وَعَاشَ أَكْثَرِمَا نَيْشٍ ! »

المجذرة : (البيضة) : « لَا تَنْسُوا أَنَّنِي جِدُّ نَافِعٍ لِلْإِنْسَانِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا أُمِّي ؟ لَقَدْ أَخْبَرْتَنِي أَنَّ صُرْعِي (نَذْيِي) سَيَدُرُ اللَّيْلَ بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ . »

وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ « سُمَادَ » الصَّيْمِرَةَ سَتَفْرَحُ بِهَذَا اللَّيْلِ الطَّيِّبِ الرَّيِّ ، وَتَسْتَسْبِغُ مَا يَخُورِيهِ مِنْ زَيْدٍ دَسِمٍ هَنِي . »

الخنساء : (الغرة تغلب لعل) ، « صَدَقْتَ يَا بَيْتِي ، فَإِنَّكَ عَلَى وَشَكِّ أَنْ تُصْبِحِي فِي عِيدَادِ الْبَقَرِ وَنَمَّةٌ يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِبَيْتِكَ السَّائِعِ فِي تَغْذِيَةِ أَطْفَالِهِمْ ، وَيَتَفَتَّحُونَ فِي صُنْعِ الْوَادِ الْجُبْنِ وَالزُّبْدِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَدَائِدِ الْأَطْلَمَةِ . »

أم قزوة : (لعل تغلب لعل) ، « أَلَا تَعْلَمِينَ - يَا صَدِيقَتِي الْخَنَسَاءُ - أَنَّ لَبَنِي يُعَافِي الرَّمَضَى ، وَيُقَوِّي أَجْسَادَهُمْ ؟ إِنِّي صَادِقَةٌ إِذَا قُلْتُ : إِنِّي أَكْثَرُ الْحَيَوَانِ تَقَمًّا لِلْإِنْسَانِ . وَلَسْتُ أَبَاهِي (أَخِيرُ) بِنَفْسِي ، وَلَا أَعَالِي بَعِيَّتِي - إِذَا قَرَرْتُ ذَلِكَ فِي تَقَةٍ وَتَقِينِ ، وَمَا أَحْضَبُ أَنْ أَيْ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَنْتَفِعُ النَّاسَ بِمِقْدَارِ مَا أَنْعَمَهُمْ فَلَا عَجَبَ إِذَا أَحْبَبْنَا ، وَفَتِنَا بِنَا - مَشَرَّ الْخِرَفَانِ - وَجَمَلْنَا مَضْرَبَ الْأَمْثَالِ فِي مَنَاجِ خِلَالِ الْإِنْسَانِ . فَهُمْ يَقُولُونَ فِي أَمْتَالِهِمْ ، وَمَا أَصْدَقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ : « إِنَّ قُلُوكَ وَدِيعُكَ كَالْحَمَلِ ! »

أُمُّ الْأَشْعَثِ : (الغرة تغلب لعل) ، « لَتَلَكَّ - يَا أُمُّ قَزْوَةَ - تَمَرَّيْنِ

نَفْسِكَ عَلَى إِتْقَانِ الدُّرُوسِ عَلَيْنَا .

أَمْ فَرَوَةَ : (هبة) ، (دسك) : « إِنَّمَا النَّيْرَةُ وَالْحَسَدُ ، يَذْفَمَانِكَ إِلَى السُّخْرِيَةِ مِنَّا أَقُولُ . لَقَدْ عُرِفَ عَنْكَ حُبُّ الشَّاكِسَةِ وَالْمَاكِسَةِ ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُكَ - بَيْنَ النَّاسِ - بِالشَّرَاسَةِ وَسُوءِ الْخُلُقِ ، لِأَنَّكَ دَابَّةٌ عَلَى الشَّجَارِ وَالتَّرَايِجِ . وَالنَّاسُ يَتَقَتُّونَ هَذَا الْخُلُقَ الشَّرِسَ . وَإِنِّي أَكْشِفُكَ الْقَوْلَ : إِنَّكَ قَلِيلَةُ النَّصَاءِ ، حَقِيرَةُ الْفَائِدَةِ . »

أَمْ الْأَشْمَتِ : (المرء تغالب النجبة) ، (منفعة حافظة) : « كَيْفَ تُنْكِرِينَ فَائِدَتِي ؟ أَعَنْ جَهْلِي تَفْمِيلِينَ ذَلِكَ ، أَمْ عَنْ تَجَاهُلِي ؟ إِنَّ النَّاسَ يُطْلِقُونَ عَلَيَّ دَائِمًا ذَلِكَ الْقَلْبَ الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، يَقُولُونَ : « بَقَرَةُ النَّسَاكِينَ وَالْفُقَرَاءِ ! » . إِنَّكَ خَيِّتَهُ - يَا أُمَّ فَرَوَةَ - لِأَنَّكَ تَجْرُبِينَ عَلَى إِنْكَارِ فَوَائِدِ النَّمِيَّةِ ، وَمَزَايِ النَّمِيَّةِ ، وَتَجْنَحِينَ فَعْلَى النَّاسِ . وَلَسْتُ أَدْرِي : أَيُّ مِيزَةٍ أَفْرَدْتَ بِهَا - مِنْ بَيْنِ الدُّوَابِّ - قَتَلْتَ نَفْسَكَ صَلَفًا (كِبْرًا) وَغُرُورًا وَادْعَاءً ، حَتَّى زَعَمْتَ أَنَّ لَبَنَكَ الَّذِي . . . »

أَمْ فَرَوَةَ : (النجبة) ، (تسمو بصوتها العليل) : « لَا تَنْفَضِي يَا أُمَّ الْأَشْمَتِ ، وَلَا تَتَمَادَى فِي صَحْبِكَ (صَحْبِكَ) ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَيْسَرُ مِنَّا نَظْمَيْنِ . وَفِي

قُدْرَتِنَا أَنْ نُنَاقِشَ - فِي غَيْرِ غَضَبٍ - وَأَنْ نُذِلَّ بِحُجَّتِنَا مِنْ غَيْرِ مَنَافَرَةٍ أَوْ مُلَاحَظَةٍ أَلَا تُحَرِّينَ - قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - أَتْنِي عَظِيمَةُ الْفَائِدَةِ لِلنَّاسِ ؟ فَإِذَا أَنْكَرْتِ هَذَا فَتَجَرَّبِي - بِرَبِّكَ بِاعْزِزَتِي - كَيْفَ يَمِشُ الْإِنْسَانُ إِذَا قَدَّ نَجَاحُهُ وَكِبَالَتُهُ ؟ وَكَيْفَ يَقْضِي فَصْلَ الشِّتَاءِ ، وَتَقَى غَالَةَ الْبَرَدِ ، إِذَا حَرِمَ صَوْفَنَا النَّافِعَ الَّذِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ؟ لَاشْكُ أَنَّهُ يَمُوتُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرَدِ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحْذِنُ صَوْفَنَا : جَوْزِيَّةَ النَّاسِ يَنْطَلِي بِهِ سَافِيَهُ ، وَفَيْصِهِ الَّذِي يُغْطِي بِهِ صَدْرَهُ ، وَدِثَارَهُ وَثِيَابَهُ التَّليِظَةَ الَّتِي تَحْبِلُ لَهُ الدَّفْءَ . وَمَنْ عَظُمَى يَمْنَعُ الْأَزْرَارَ وَأَيْدِي الْمُدَى (السَّاكِنِينَ) . وَمَنْ أَغْلَافِي (حَوَافِرِي) يَسْتَشْرِجُ النَّيرَاءَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ . فَكَيْفَ تَجْحَدِينَ فَضْلِي ، أَوْ تُشْكِرِينَ مَزَايِي الْبَاهِرَةِ ؟ إِنِّي أَقَرُّ لَكَ - فِي غَيْرِ زَهْوٍ - أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِشَ بِقَدَمِي ، وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى جَحْدِ فَضْلِي عَلَيْهِ . »

(تظهر دواب الاسطبل إلى النجبة ، وقد استول عليها الحبب والدمنة جميعاً ، وقد أصيب الدواب كلها بذلك المصيب القوي الذي أدلت بها النجبة في فضاة ورموح .)

أَمْ الْأَشْمَتِ : (هبة) ، (سرعة فائقة) : « أَتَحْسِبِينَ أَنَّكَ أَفْرَدْتَ هَذِهِ الْمِيزَةَ

— بَأَمِّ قُرُوءَ — من بين دوابِّ الأرض قاطبة (جميعاً) ؟ كَلَّا
يا عزيزي ، لم تغردى بها ؛ فقد حَدَّثَنِي أُمِّي أَنَّ دَابَّةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي
— تعيش في بعض البلدان النائية — لها شَعْرٌ طَوِيلٌ نَاعِمٌ ، وَأَثْبَتَتْ لِي
أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ صَوْفِكَ وَأَجْلُ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ ثِيَابًا أَغْنَمَ مِنْ
تِلْكَ الَّتِي يَصْنَعُونَهَا مِنْ صَوْفِكَ ، وَالَّتِي مَلَمَسًا ، وَأَغْلَى ثَمَنًا . وَقَدْ عَاشَ بَعْضُ
جِيرَانِنَا فِي خَيْبَةِ مَنْسُوجَةٍ مِنْ شَعْرِنَا الْتَيْنِ ، كَمَا حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أُمِّي ،
مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ ، خَتَمَتْهُ قَائِلَةً : « إِنَّا — مُشَرِّعُ الدِّمِيرِ — قَدْ أَصْبَحْنَا
مُضْرِبَ الثَّلِثِ فِي الْقَنَاقَةِ بِكُلِّ مَا نَحْصِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيْزِ الَّذِي لَا يَفْنَى بِهِ
غَيْرُنَا مِنَ الدُّوَابِّ . فَتَحَرُّ نَكْتَفِي بِمَا نَلْقَاهُ فِي طَرِيقِنَا مِنَ الْحَشَائِشِ وَفِشْرِ
الشَّجَرِ ، وَنَقْنَعُ بِمَا يُقَدَّمُ لَنَا مِنْ فِشْرِ الْبَطِيخِ وَقِصَلَاتِ الْأُطِيمَةِ ،
وَنَسْتَشْرِئُ فُتَاتَ الْخُبْزِ الْخَفِيفِ ... »

أَمْ قُرُوءَ : (السمعة) : لستُ أعرفُ ابنةَ عمِّك هذه ، وما أدري ما هي ، لأنني لم أرَها مطلقاً حتى قطع . وبها يكنُّ من أمرٍ ، فإنك قليلةُ الفائدة يا أُمَّ الْأَشْمَثِ . وليس فيك من الميزات ما يدعوك إلى الزَّهْوِ والمُبَاهَاةِ . أَلَا تَرَى أَنَّكَ الْخُصْلُ الْجَامِدَةُ - من الشَّعْبِ - الَّتِي قَوْفُ ظَهْرِكَ ؟

فخبرني: أي فائدة ترضي منها؟ وأي قوب جميل يصنع من نبيجها؟
أحسب أن أخبرك عما يصلح له جلدك هذا؟ إن الناس يصنعون منه
- بعد موتك - سياطاً لتأديب الكلاب العاصية الشرردة! »

أَمِ الْأَشْعَثُ : (العسر) (تعاطب النعمة) : « لَسْتُ أَعْرِفُ إِلَّا مَخْلُوقًا وَاحِدًا جَدِيرًا بِالْعِقَابِ وَالنَّادِبِ ، هُوَ أَنْتَ يَا عَزِيزِي . فَزَيَّنِي (تَهَيَّلِي) وَانْظُرِي) قَلِيلًا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَى الْغَلَاءِ ، وَأَنَا زَعِيمَةُ (كَفِيلَةُ) لَكَ يَا دُوبِكُ وَسَيُعْلَمُكَ قَرْنَايَ كَيْفَ تُحْسِنِينَ الْقَوْلَ فَمَا تَعْدُ ! »

الطَّلِي: (المحل) : (بصوت الصغرة المضمومة) : « كَوْنِي عَلَى ثِقَةٍ أَنِّي لَا أَرْضَى أَنْ تَضْرِبَنِي أُمِّي، وَلَنْ أَمْسِكَ مِنْ ذَلِكَ ! »

ابن اوزيع : (كلب الخرس ، وهو جاثم تمام الباب) « عَوْ اَعَوْ ! اَلَا تَكْفُرُونَ عَنْ هَذَا الصَّحْبِ اَلَّذِي الْعَابِدُونَ الْمُسْتَهْزِئُونَ ! »

يَا سَاكِنِي الإِصْطِلَ ، يَا سَاكِنِي الزُّرَيْفَةَ ، يَا سَاكِنِي التَّرْبِيعِ ،
يَا سَاكِنِي الْمَطْوِينَ : هَذِهِ ثَمَرَتُهُ لَا تَفَاقُ . مَا بَالُكُمْ تَتَصَايَحُونَ (يَصِيحُ
بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ هَلْ جِئْتُمْ هَذَا الْمَسَاءَ ؟ أَقَدْ أَرَعَجْتُمُونِي ، وَتَقَسَّمْتُمْ
عَلَى صَفْوَتِنَايَ أَلَا إِنِّي مُنْذِرُكُمْ أَنِّي مُفَضِّئُ إِلَى سَيِّدِي (مُعَذِّدُهُ وَمُخْبِرُهُ) .

نسكت للواب جهماً ، وكثير الغناء لها
الجاف في سرودها ، وتبخر أم فروة ، ويخشو
القل تعذبها ليشر من صرعها جرعات من القن.
أما أبو دلف فيترقب من الحائط ، ويظل
يحك جسمه بها . ويحرك أبو زهاد أدليه
الطويلين . ثم تخرج لأرة من جحرها فيخرج
« أبو حجر » ويقتل - من شه : القدر - ضحية
الغارة إلى جحرها خائفة . وثق الساعة التي
عشرة دقة ، ويعد ابن وأزع إلى وجاره .



يَا تَفْعَلُونَ ، إِذَا لَمْ تَكْفُوا عَنْ هَذَا الشَّنْبِ . وَهُوَ - فِيمَا أَرَى -
كَفِيلٌ بِأَدْيِكُمْ . فَحَذَرُ أَنْ أَتَمَّعَ صَوْتًا بَعْدَ الْآنَ ؟

الخنساء : (الغزة) : (بصوت مستغنى به صمت طويل) : « يَسْتَحِيلُ عَلَى التَّوَمُ فِي هَذِهِ
الَّيْلَةِ . شَدَّ مَا أَخْطَأْتُ « أُمُ فَرْوَةَ » وَ « أُمُ الْأَشْمَتِ » ! لَقَدْ خَرَجْنَا
عَنْ جَادُو الْأَدَبِ (طَرِيقِهِ) فِي جَوَارِحِهَا (شَأَقَشْتَهُمَا) ، وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِبَنِي
هَاتَيْنِ الصَّدِيقَتَيْنِ الْمُؤَدَّبَتَيْنِ أَنْ تَخْرُجَ بِهِمَا الْمَنَافِةُ ، وَتَصِلَ إِلَى هَذَا
الْحَدِّ . إِنَّمَا أَبْنَتَا عَمِّ ، وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِالْأَغَارِبِ أَنْ يَتَنَازَعُوا .. فَهَلَكُنِي
يَا « أُمُ فَرْوَةَ » وَأَتَيْتِي حَدِيثَكَ الَّذِي بَدَأْتَهُ ، حَتَّى تَعْرِفَ فَوَائِدَ
كَلِمَاتِي .

أُمُ فَرْوَةَ : (الصبية) : « أَتَيْتُ حَدِيثِي بِكُلِّ ارْتِيَاكِ يَاعَزِيزَتِي ، إِذَا ضَمِنَتْ لِي
صَنْتُ « أُمُ الْأَشْمَتِ » وَاعْتَصَمْتُهَا بِالْهَدُودِ .. لَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ - بِأَرْفَاقٍ -
أَنْ لَبِنِي لَدَيْدُ الطَّمْرِ ، وَأَنْ لَعْنِي شَعْيٌ ، سَالِحٌ هُنَا . وَلَسْتُ أَفْكَو
وَلَا أَشْرِفُ ، إِذَا قُلْتُ لَكُمْ : إِنَّهُ أَفْضَلُ لَعْنِي فِي الدُّنْيَا .
أُمُ الْأَشْمَتِ : (امتر) : « وَلَا تُنْسَى أَنِّي أَنَا أَيْضًا ... »

الخنساء : (هذرة) : « لَسَكُنِي - يَا أُمُ الْأَشْمَتِ - وَاصْبِرِي حَتَّى يَأْتِيَ دَوْرُكَ ! »
(٢)

أم فروة: (نساء): «إني لم أنم كلامي بعد... فاعلموا أن الناس يتخذون من مصاريبي - بعد موتى - أوتارا للكمان والقيثار، يمزفوا عليها بأعذب الألحان، وأزج الأنغام، التي تشجو السامعين (تخزئهم) وتبكيهم.»

أم الأشعث: (السر): «ما أعجب أثركم أيها الإخوان الأعزاه...

فأبو زياد يدق طنبوره، وأنت - يا أم فروة - تعرفين على كمانك. ومنكما تألف موسيقى مزدوجة بارعة!»

أم فروة: (السجدة لمخاطب العز في حذر): «لا تسخرى مني - أيها الرفيعة العزيرة - فإني مخلصه لك طائفة من قوائد التي أجود بها للناس. فهلي - يا ابنة المم - وعدى على قرنيك ما أنا ذا كرته.

أولا: أجود لهم بلخي.

ثانيا: أمتهم جليدي.

ثالثا: أعطيهم مصاريبي، ليصنموا منها أوتار الكمان.

رابعا: لا أضن عليهم بما يدره ضرعي من اللين السانع الشهي.

خامسا: لا أبخل بشحبي الذي يصنمون منه الشمع.

سادسا: أدرك عليهم كبتي الذي يصنمون منه الربد والجبن والقشدة. وبعد، أفلا يتكفيك هذا؟ أثر يدين أن أستريل في عد ما تيري، وميزاتي النادرة؟ أم تحسبك (يتكفيك) هذا القدر!»

الخنساء: (بقية لمخاطب السجدة): «أحسنت - يا أم فروة - وقد أفرزنا

لك جميعا بالسبق، واعتزنا أنك من أفتح الثواب لبيدنا الإنسان.

والآن جاء دورك يا أم الأشعث، فاذكري لنا مزاياك، على أن تتحدثي

إلينا بصوت هادي رزين، حتى لا يسمك «ابن وازع» (الكس)

فينصص علينا صفونا.»

أم الأشعث: (السر): «أنا أمتع سيدي مقداراً كبيراً من اللين اللين،

الذي يحوي من عناصر التغذية شيئا كثيرا. وهو بشي الرضى

- كما تعلمون - ويغذي صغار الأطفال. ولا تنسوا أنني خير معين

للفقراء، لأنني أفتح من الغذاء بالثافه القليل، وأجود لهم ولأولادهم

بالغذاء الطيب الوفير (الكثير). ثم إن لحي سانع شهي، ولن

يضرني أني نجفة الجسم، وأن لحيي - لذلك - جامد شيئا ما.

على أن هذا ليس من خطي، فقد أدت - على كل حال - واجبي.

وليس جلدي بأقل من جلدي غيري صلاحية للناس . »

الخنساء : (تفرغ) : « لَسْنَا نَشْكُ - يَا أُمَّ الْأَشْعَثِ - فِي فِعْلِكَ . وَلَئِنْ حُرِمْتَ الصَّوْفَ الَّذِي مُنِحْتَهُ أُمَّ قُرَوَّةٌ ، لَقَدْ وَهَبَكَ اللَّهُ مِيزَةً أُخْرَى ، فَإِنَّكَ تَذَرْنِ مِقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ اللَّبَنِ السَّائِغِ الَّذِي يَخْوِي قَشْدَةً فَاحِرَةً . وَحَسْبُكَ - يَا عَزْرَتِي - أَنْكَ مُؤْنِسَةُ الْفَقِيرِ ، وَمُعِينَتُهُ ، وَمَانِعَتُهُ كُلِّ مَا تَمْلِكِينَ ، فَأَنْتُمُي بِحُبِّ الْفَقِيرِ لِيَاكَ ، فَقَدْ بَذَلْتَ لَهُ وَسْمَكَ ، وَحَاوَلْتَ إِمْلَاكَ . وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنْكَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ . لَقَدْ آمَنَّا بِفَضْلِكَ ، وَاعْتَرَفْنَا بِزَيَاكِ وَفَعْلِكَ . هَلْ يَسُرُّكَ هَذَا الْاعْتِرَافُ ؟ أَذْهَبِي - إِذْنٌ - يَا عَزْرَتِي فَصَالِحِي أُمَّ قُرَوَّةٌ . »

أُمَّ قُرَوَّةٌ : (الخنساء) . (تقرب من العنز ونظر إليها بعينها الطليقي والدمع يترقق لهما) : « اصْفَحِي عَنِّي - يَا أُمَّ الْأَشْعَثِ - وَاعْفِرِي لِي طَلِيشِي وَحِمَاقَتِي ، فَقَدْ حَزَنَتْنِي وَالْحَسْبَى - لَوْ تَمْلِكِينَ ! - أَنِّي كُنْتُ مَصْدَرًا مُضَايِقَتِكَ ، وَتَبَعْتُ غَضَبِكَ ، فَلَتَعَذَّبْ صَدِيقَتَيْنِ ، كَمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ :

وَلَا كَانَ ، وَلَا صَارَ - وَلَا قُلْتُمْ ، وَلَا فُلْنَا
وَمَا أَحْسَنَ أَنْ تَرْجِعَ لِنُؤَدَّ كَمَا كُنَّا !
هَلْ تَصْغَحِينَ ؟ »

(تقدم العنز إلى الخنساء وتلمس طرف لها شديدة فرحانة ، وهكذا يتم الصلح بينهما . وقد ساد الكرى - حيث - واستطيل النور على أكثر دواب الإصطبل ، وظل الناس ولاحقوا وروحي زياد . كما خلا شخير « أبي دلف » الذي التمس ركنا من الإصطبل حيث مد رجليه واستلم قدم . وقد « طلق » و « أبو بجير » جثا إلى جنبه ، ثم جرى الدم إلى الباقين ، فأحدوا ينظفون أبقانهم شيئا . ثم دام البسج وراحوا في سبات عميق)



(الشديد السواد) - شَبَنًا مِمَّا حَوْلِي، وكانَ مَرَبَطِي أَقْرَبَ بَرَابِطِ الإِصْطَبَلِ
وأَذْنَاهَا إِلَى الْبَابِ (أَقْرَبَهَا مِنْهُ)، وَقَدْ اضْطَرَبَ جِسْمِي وَارْتَمَعَنَ حِينَ
سَمِعْتُ نَهْيَ ذَلِكَ الزَّائِرِ الْمَفْاجِئِ يَتَكَرَّرُ فِي فَرَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَفِيهِ رَنَةٌ
حُزْنِي لَا تَنفَقُ عَلَى سَامِعِهِ.

٣ - سَائِسُ الإِصْطَبَلِ

وَسَمِعْتُ صَوْتَ سَائِسِنَا «شَفِيقٍ» وَأَحْسَسْتُ دَيْبَ أَقْدَامِهِ (وَقَعَ
أُذُنُهُ) وَقَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ اللَّذِيذِ. وَكَانَ يَأْوِي إِلَى غُرْفَةٍ خَشِيبَةٍ فِي
أَعْلَى الإِصْطَبَلِ بِجِوَارِ مَخْرَنِ الدَّرَبِ. لَقَدْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ الرَّحْمَةِ،
وَمَثَلًا مِنْ أَمْتِلَةِ التَّجْدُو. فَلَا عَجَبَ إِذَا لَمْ يَتَبَرَّكْ (لَمْ يَضْجَرْ) بِمُتَبِعِهِ،
وَلَمْ يَنْقُ بِدَعْوَا (لَمْ تَضْمُفْ طَائِقَهُ عَنْ إِحْيَالِهِ) بَلْ نَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ
نَاشِطًا مُلَيَّنًا (مُجَبِّيًا) دَاعِي الْمُرُوءَةِ. وَهَبَطَ مِنْ سُلْمِهِ الْخَشَبِيِّ إِلَى أَرْضِ
الإِصْطَبَلِ - وَفِي يَدِهِ مِضْبَاعُهُ - وَقَفَّحَ الْبَابَ الْخَارِجِيَّ لِلْإِصْطَبَلِ
لِيُدْخِلَ ذَلِكَ الشَّيْثَ الْمُسْكِنَ. وَكَانَ «شَفِيقٌ» يُجَنِّمُ كَلَامَهُ
(يَنْطَلِقُ بِالْفَاطِ لَا يَتَيَّنُّهَا سَامِعُهَا)، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْفَاطِ مُتَقَطِّعَةً عَلَى
طَرِيقَتِهِ الَّتِي أَفْلَحَهَا (تَمَوَّذَهَا) مِنْهُ، فَلَمْ تَبْقَ غَرِيبَةً عَلَيْنَا.

٢ - عالم الإِصْطَبَلِ

أَفْصِلُ الْأَوَّلِ

١ - صَوْتُ فِي اللَّيْلِ

قَالَتْ بَطْلَةُ الْقَوْمَةِ «قَسَامَةٌ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ:
«أَيُّ صَوْتٍ هَذَا الَّذِي يَنْبُتُ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ قِيُوقَطِي مِنْ شُبَّانِي
الْآنَ، وَيُنْهَيْنِي مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ؟
أَيُّ نَهْيٍ أَسْمَعُ؟ وَمَا بَالُ هَذَا الطَّارِقِ (الزَّائِرِ) فِي اللَّيْلِ الْغَاسِقِ
(الشَّدِيدِ الظَّلَامِ) يُضْطَرُّنِي إِلَى التَّهَوُّسِ مِنْ فِرَاشِي الْوَنِيرِ (الَّذِينَ النَّاعِمِ)
وَتَرْكِ وَسَادَتِي الطَّرِيقَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الْقَسْرِ، وَأَنَا مُسْتَسْلِمٌ لِلرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ
(الهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ)؟
لَقَدْ رَفَعْتُ رَأْيِي، وَنَصَبْتُ أُذُنِي، وَأَرَاهُفْتُ مِسْمَى، لِأَتَعْرِفَ جَلِيلَةَ
الْخَبَرِ (حَقِيقَتَهُ).

٢ - فَرَعُ «قَسَامَةِ»

كَانَ الإِصْطَبَلُ قَاتِيًا (مُظْلِمًا) جَدًّا فَلَمْ أَتَيَّنْ - فِي غَلَامِهِ الْعَالِكِ

وَلَوْ رَأَاهُ غَيْرُنَا - بَيْنَ لَا يَعْرِفُهُ - لَحَسِبَهُ غَائِبًا عَلَى هَذَا الضَّيْفِ
 الطَّارِقِ (زَائِرِ الْأَيْلِ) الَّذِي أَقْبَطَهُ مِنْ رُقَدِيمِ اللَّذِيذِ . أَمَا تَحْنُ - مَعَشَرَ
 دَوَابِّ الْإِسْطَبِلِ - فَقَدْ خَيْرَنَاهُ وَعَرَفْنَا بَالَهُ خُلُقِهِ (نَجَابَتِهِ) وَكَرَمِ
 عُنُصُرِهِ (طَيْبِ أَصْلِهِ) . وَقَدْ أَصَفَيْنَاهُ الرُّؤْدَ (حَذَقْنَاهُ الْإِخَاءَ) ، وَحَمَّضْنَاهُ
 (أَخْلَصْنَاهُ لَهُ) الْحُبَّ ، مُنْذُ قَدِمَ عَلَى الْإِسْطَبِلِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ يَافِعٌ (شَابٌ
 نَاشِئٌ) فَبَادَلَنَا الْإِخْلَاصَ ، وَعَمَّرَنَا بِأَيْدِيهِ (بَالِغٌ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْنَا ، وَأَعْدَدَ
 عَلَيْنَا مَتَاعَهُ وَنِعْمَتَهُ) ، وَامْتَلَكَ قُوسَنَا بِالْفَاعِلِيَةِ الرَّفِيقَةِ . وَكَانَ لَا يَبِي
 (لَا يَكْسَلُ) عَنْ تَزْيِينِ ظُهُورِنَا (مَسْهَا يَدِهِ ، تَحْيِيًّا إِلَيْنَا ، وَاسْتِجْلَابًا
 لِمَوَدَّتِنَا) ، وَهُوَ يَنْتَسِمُ - فِي لُطْفٍ وَحَدَبٍ (تَمَطُّبٍ) - كَلَمًا مَرَّيْنَا .
 وَهُوَ شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِي ، دَائِمُ التَّعْطِفِ عَلَيَّ . وَقَدْ اخْتَارَ لِي أَحَبَّ
 الْأَسْمَاءِ ، فَأَمْلَقَ عَلَيَّ اسْمَ « قَسَامَةِ » (حُسْنِ) لِأَنِّي - فِيمَا بَرَى - أَتَجَمُّعُ
 بَيْنَ جَمَالِ الصُّورَةِ ، وَكَرَمِ الطَّنِيعِ ، وَحِدَّةِ الذِّكَاةِ . كَمَا سَمَى وَلَدِي الْمُنِيرَ
 « سَوَادَةً » وَأَمْلَقَ عَلَيْهِ لَقَبَ « زَادِ الرُّكْبِ » . وَهُوَ يُؤَمِّرُنِي (يُعْضِلُنِي)
 وَيُزِيرُنِي عَلَى كُلِّ فَرَسٍ .

وَمَا أَنْسَى لَا أَنْسَى لِهَذَا الرَّجُلِ الْكَرِيمِ فَضْلَهُ عَلَيَّ فِي أَشْهُرِ الْحَمْلِ ،
 فَقَدْ بَدَّلَ مَا فِي وَسْطِهِ فِي النَّيَافَةِ بِأَمْرِي ، حِينَ كُنْتُ عُسْرَاءَ ، وَظَلُّ
 يَتَمَهَّدُنِي وَبَرَعَانِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا كَامِلَةً ، حَتَّى وَصَلْتُ وَلَدِي الْبِكْرَ
 « زَادَ الرُّكْبِ » . وَكَانَ يُعْنَى بِرِيَاضَتِي ، وَتَنْظِيفِ مَرْبَطِي وَفِرَاشِي ، وَتَنْظِيفِ
 غِذَائِي ، وَجَلْبِ الْمَاءِ فِي إِثَارِهِ لَطِيفٍ . وَلَمْ أَتِمَّ الشَّهْرَ الثَّالِثَ مِنْ أَشْهُرِ
 الْحَمْلِ ، حَتَّى ضَاعَتْ عِنَايَتُهُ ، وَأَرَادَحَنِي مِنْ كُلِّ عَمَلٍ . وَكَانَ يُجِلِّي فِي
 النَّهَارِ أَجَلَ تَحَلِّيٍّ خَارِجِ الْخُطِيرَةِ ، حَيْثُ الْهَوَاءُ الطَّلَقُ ، فَلِذَا جَنَّ الْأَيْلُ
 (أَعْلَمَ) أَحَلَّنِي أَرْحَبَ مَكَانٍ فِي الْخُطِيرَةِ . وَمَا زَالَ يَمُزُّنِي بِعُطْفِهِ
 وَلُطْفِهِ ، وَيُجَلِّي (يُنْطَلِّي) بِتَوْبِ غِلِظٍ يُعْنَى أَذَى الشَّيَارِ ، حَتَّى أَتَمَمْتُ
 الشَّهْرَ الْحَادِيَ عَشَرَ .

فَلَمَّا انْتَصَفَ الشَّهْرُ الثَّانِي عَشَرَ - أَوْ كَادَ - رَأَيْتُ فِي مَنَامِي حُلُمًا
 عَجِيبًا ، فَهَمْتُ (فَرَحْتُ) لَهُ تَفْسِي ، وَابْتَهَجَ رُؤْيَايَ قَلْبِي إِنَّمَا ابْتِهَاجٌ . وَمَا

أَنْسَ لَا أَنْسَ مَا حَيَّتْ طَيْبَ هَذَا الْقَتَامِ .

قَدْ رَأَيْتُنِي بَيْنَ جَمَاعَةٍ مِنْ كَرَامِ الْأَفْرَاسِ وَالْمِهَارِ ، وَقَدْ أَقْبَلَنِي عَلَى
فَرَحَاتٍ ، وَاسْتَقْبَلَنِي تَوَلُّوْدِي الْجَدِيدُ مُهَلَّلَاتٍ ، صَاهِلَاتٍ بِأَعْدِبِ
الْأَغَانِي مُنْشِدَاتٍ ، مُتَحِمَاتٍ بِأَغَارِيدِهِنَّ مَتَرَنَاتٍ .

وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِنَّ أَنَّهُنَّ طَائِفَةٌ مِنْ سَوَائِفِ الْكَرِيمَاتِ ،
وَجَدَاتِنَا الرِّيَاسَاتِ الْأَمِيلَاتِ ، فِي الْعُصُورِ الْغَابِرَاتِ (الْقَدِيمَاتِ) . وَقَدْ
دَوَّنَ لِي مِنْ بَدَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَعَجَائِبِ الْأَنْشَارِ ، مَا لَمْ يَكُنْ لِي يَخْطُرُ لِي
عَلَى الْبَالِ . وَعَرَفْتُ مِنْهُنَّ طَائِفَةً نَبِيلَةً لَبَسَتْ أَزْوَاجَ الْعَرَبِ الْقُدَامَى (الْقَدَمَاءِ)
مِنْ الْأَعْوَجِيَّاتِ (بنات « أعوج » جَدْنَا الْعَظِيمِ) الَّتِي يَفْخَرُ بِهَا
تَارِيخُنَا الْحَافِلُ الْمَجِيدُ . وَمَا زِلْتُ أَتَمَتَّلُ تِلْكَ الْوُفُودَ الْكَرِيمَةَ — مِنْ
بنات « النَسْجِدَى » وبنات « أعوج » — وَقَدْ فَاضَتْ وَجُوهُهُنَّ بِشَرَاهِ .
وَاشْتَرَكْنَ مِنْهُنَّ فِي الْغِنَاءِ « ذُو الْمُقَالِ » وَ« دَاحِسُ » ، وَ« التَّهْرَاءُ » ،
وَ« سَبَلُ » ، وَ« عُلُوهُ » ، وَ« الْجَرَادَةُ » ، وَ« الْخَطَّارُ » ، وَ« الْخَفَاءُ » ،
وَ« الشُّقْرَاءُ » ، وَ« الْعَوَاجُ » ، وَ« السَّمَاءُ » ، وَ« الزُّغْفَرَانُ » ،
وَ« السَّكِينَةُ » ، وَ« الْبَطِينُ » ، وَ« الصَّرِيحُ » ، وَ« الْوَصِيفُ » ،

وَ« أَعْوَجُ الْأَمْنَرُ » ، وَ« أَعْوَجُ الْأَكْبَرُ » ، وَ« الدِّينَارُ » ، وَ« وَلَدُهُ
« الْمَجُوسُ » ، وَمَا لَيْتُنِي مِنْ كَرَامِ الْخَيْلِ اللَّائِي نَبْهَجُ لِأَخْبَارِهِنَّ ،
وَلَسْتُ بِالْإِتْسَابِ إِلَيْهِنَّ .

٧ — الْمَوْلُودُ الْجَدِيدُ

وَانْتَهَيْتُ مِنْ تَوْرِي قَرِيحَةَ مُسْتَبْشِرَةٍ ، وَلَمْ تَنْقُضْ سَاعَاتُ قَلِيلَةٍ حَتَّى
وَسَمْتُ — فِي عَالَمِ الْبَقْطَةِ — هَذَا الْمَوْلُودَ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ .
وَلَسْتُ أَسْرَعَ السَّائِسِ إِلَيْ — مِنْ فُوزِهِ — فَمَرَّقَ الْأَغْنِيَةَ الَّتِي كَانَتْ
تُحِيطُ بِالْجَنِينِ . وَلَقَدْ أَحْسَنَ إِلَى الْإِحْسَانِ كُلَّهُ — بِمَا قَلَّ — قَدْ
عَلِمْتُ أَنَّهُ لَوْ غَفَلَ ذَلِكَ (لَوْ تَرَكَهُ) ، لَخَفَّتِ الْجَنِينُ عَقِبَ وَلَاذِيهِ .
ثُمَّ قَطَعْتُ لِي كَيْ الْقَتْمَةِ لِأَكْسِيَةِ عَيْثَا مِنَ الدُّشَاطِ . فَبَدَأَ مَا أَجَلُهُ أَنْ تَقْبَسَ فِدَاهِ
هَذَا الْمَوْلُودَ الطَّرِيفَ . لَقَدْ مَمَّ بِالْهُمُوزِ مُحَادِلًا أَنْ يَقِفَ عَلَى أَقْدَامِهِ — كَمَا
يَقِفُ أُمُّهُ — فَلَمْ يَقِفْ عَلَى ذَلِكَ . وَظَلَّ يَتَرَجَّعُ — بَيْنَةً وَبَسْرَةً — مَرَّةً
بِمَدِّ أُخْرَى ، ثُمَّ يَقِفُ عَلَى أَحَدِ جَنْبَيْهِ فَوْقَ الْفِرَاسِ الْوَتِيرِ (الْمَلِينِ) الَّذِي
عِنْدَ السَّائِسِ لِإِعْدَادِهِ ، وَأَنَا جِدْتُ مُشْفِقَةً عَلَيْهِ . وَلَمْ تَمُرْ عَلَى هَذِهِ الْحَوَالَاتِ

نصف ساعة تقريباً حتى استنسك ، وقويت أقدامه على التهور ، قوّفت
مُتنبّئاً ، دون أن يقع على الأرض . وما لبث أن اهتدى إلى ضربي (نذري)
(والضرع لنا - منشَر الأفراس ولقيتنا من الشاء والبقر ونحوهما - مَدْرُ
اللبن : مثل الخلف للثافة ، والنذري للمرأة) . ولم أعجب لذلك ، فقد
أرشدته إليه فطرته السليمة ، وعريزته (طبيعته) القويّة . وأقبل على
فرض من ضربي ماشاء حتى ارتوى وشبع . ولم يستق السائس ، بل
عني في الصباح ، فمسك ذبلي وأرجلي وأضادني . وأخصر لي غداً مليكاً :
من برسيم شعبي ، وماه دافه هني .

...

وما زال يتمدّني في أيام الرضاع حتى عادت إلى صحتي ونشاطي في
أقرب وقت . وقد أطلق على وليدي العزيز لقباً طريفاً يدل على ذوق عال
أميل ، وهو : « زاد الركب » . وقد أصبح « زاد الركب » أحب مخلوق
إلى نفسي ، في هذه الدنيا ، وقد انتهجت بما يتم به من صحة وعافية . ولم
ينقص على هذا المولود أسبوع واحد حتى أصبح قادراً على الجري إلى
جانبي ، وصار يدور من حولي في ذلك المرحى الفسيح .

انصل الثاني

١ - الضيف العزيز

لقد دارت برأسي هذو الذكريات وأمنائها ، حين خرج السائس من
الحظيرة ، ليستقبل ذلك الضيف الثاقب الحزين ، الذي حدثك به في
الفصل السابق . ومرت بذهني سراعاً أطراف الذكريات ، كما تمر الأعلام .
فلما بلغ به الباب نهضنا - معشر الدواب - على قوائمنا (أقداننا)
لاستقباله ، وأطلقت برأسي - من أعلى باب مربطلي - فرأيت عيني
مذهوشتين تفحصان عن كل ما تعرض لهما ، وهي سائرة في طريقها
إلى مربطها . وكنت - كما حدثك - أقرب دواب الإسطبل إلى
الباب ، فكنت أول من رأى ذلك الرفيق الثاقب الذي رجع سائسنا
« شفيق » من المطر الغزير (الكثير) ، وألقاه من غائلة البرد القارس
(نجاها من شدته المهلكة) . وكان الضيف قد بلغ بصيفنا كل مبلغ ،
فأضناه (أسفناه وأمرغناه) ، وعدّ قواه ، وعزّل جسده ، فأصبح أدنى

(فَرَب) إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ .

٢ - ابنُ المَـ

وَسَمِعْتُ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ مِنْ أَجْلِ هَذَا الضَّيْفِ الثَّانِي، وَقَدْ كُنْتُ خَلِيفَةً (جَدْرَةً) أَنْ أَتَهَيَّجَ (أَفْرَحَ) لَهُ، لِأَنَّهُ حَطَّهَ الْعَسَنَ قَدْ سَاقَهُ إِلَى حَظِيرَتِنَا الْوَادِعَةِ (السَّاكِنَةِ الْهَادِئَةِ) الَّتِي تَأْوِي إِلَيْهَا. وَمَا أَجْدَرُهُ بِحَيٍّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَثْنَاءِ مَحْمُومِي الثَّقَرَيْنِ. فَقَدْ بَدَأَ لَيْتِي - حِينَئِذٍ - مَا لَقِيَهُ مِنْ سُوءِ الدَّمَائِلَةِ. فَقَدْ تَشَعَّتْ شَعْرُهُ (تَفَرَّقَ) وَتَلَبَّدَ فِي بَعْضِ جِهَاتِهِ، وَنَسَلَ (انْتَفَشَ وَنَسَقَطَ) مِنْ جِهَاتٍ أُخَرَ. وَظَهَرَ الشَّيْبُ وَالْهَرَالُ عَلَيْهِ، فَخِيلَ لِمَنْ رَأَاهُ، أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ هَيْكَلًا عَظِيمًا يَهْفَأُ (يَتَسَاقَطُ) مِنَ الضَّغْبِ، وَهُوَ نَشِي إِلَى مَرَبَطِهِ الْخَالِي فِي آخِرِ الْإِصْطَبَلِ .

٣ - حَدِيثُ السَّائِسِ

وَكَانَ السَّائِسُ رُبَّتْ أَفْعُهُ مُؤَوِّدًا (مُتَحَبِّبًا) إِلَيْهِ، وَهَيَّئَ لَهُ - مِنْ أَشْنَاتِ الْقَسْ (مُتَفَرِّقَاتِهِ) فِرَاشًا وَهَيَّأَ (لَيْتًا) مَرْحَا، وَهَوَّلَ لَهُ مَدَاعِبًا (مُمَازِحًا):

« مَا أَطْلُكَ يَا أَبَا زِيَادٍ - وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا (جَلُوزَتْ السِّنُّ الثَّالُوفَةُ) - بِعَادِرٍ عَلَى آدَاهِ عَمَلٍ، جَلٌّ أَوْ صَغَرٌ !

وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَى وَشَاكَ أَنْ تَهْلِكَ سَفَا (تَمُوتَ جُوعًا)، بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَ أَرْذَلَ الْعُمُرِ؛ فَمَا أَسْمَدَنِي بِخِدْمَةِ أَمْثَالِكَ مِنَ الضُّعْفَاءِ !
فَسَرَرْنَا جَمِيعًا مِنْ هَذَا الشُّعُورِ النَّبِيلِ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « شَفِيقُ » حَدِيثَهُ، وَهُوَ يَقُولُ فِي الْإِصْطَبَلِ قَائِلًا :
« مَا أَسْمَدَ حَطَّكَ - يَا أَبَا زِيَادٍ - إِذَا اهْتَدَيْتَ إِلَى حَظِيرَتِنَا، فَإِنَّهَا - لَوْ تَعْلَمُ - الْمَلَادُ (الْتِلَاجُ) الْأَمِينُ لِأَمْثَالِكَ مِنَ الْعَجَزَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ، حَيْثُ يُسَمَّحُ لَكَ بِالْبَقَاءِ فِي الْحَظِيرَةِ، دُونَ أَنْ تُؤَدَّى عَمَلًا مَا قَالَبْتَ (قَابَضْتَ) وَلَمْ تَكُنْ - إِنْ شِئْتَ - فِي هَذَا الْمَرَبَطِ إِلَى الصَّبَاحِ . »

وَمَا أَذْرَى كَيْفَ عَرَفَ أَنَّ هَذَا الضَّيْفَ يُدْعَى « أَبَا زِيَادٍ » فَقَدْ ظَهَرَ لِي - فِيمَا بَعْدَ - أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ كُنْيَتَهُ الَّتِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ، بَلْ أَنَّ يَدْعُوهُ بِهَا سَائِسُنَا الدُّكِيُّ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّائِسُ كَلَامَهُ مُتَوَقِّفًا إِلَى قَائِلًا : « مَا أَطْلُكَ - يَا أُمَّ سَوَادَةَ - وَصَوَانِيكَ بِحَاجَةٍ إِلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي . فَمَذَنَ (ارْجَمَنَ) إِلَى

تَوَيْمَكُنْ - مرّةً أخرى - وَتَتَمَتَّنْ بِرُغَادِ كُنْ الْهَيْءِ وَأَخْلَايَكُنَّ السَّمِيدَ ،
فَإِنَّ عَلَيْكَ فِي صَبَاحِ الْغَدِ أَعْمَالًا جِسَامًا (عَظِيمَةً خَطِيرَةً الشَّانِ) .

٤ - مُهَادٌ « قَسَامَةٌ »

ثُمَّ صَعِدَ السَّائِسُ دَرَجَاتِ السَّلَمِ ، وَهَذَاتِ الْجَلْبَةِ (سَكَنَتِ الْعُشْبَةُ)
بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَنَامَ كُلُّ مَنْ فِي الْإِسْطَبَلِ . وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْ صَوْتِ رِفَاقِ
الدُّوَابِّ ، فَبَيَّرَ شَجِيرَهَا الْمُتَمَتِّعُ مِنْ مَرَايِطِهَا الدَّائِنَةِ (الْقَرِيبَةِ) وَالنَّاتِجَةِ
(الْبَعِيدَةِ) . أَمَّا أَنَا فَعَالَفَتِ الشَّهَادُ (صَاحِبِي السَّهْرِ) . وَأَرَفْتُ (ذَهَبَ)
تَوَيْمِي ، فَلَمْ يَزِدْ الْكَرْسَى (التَّوَمُ) جَفْنِي طَوْلَ اللَّيْلِ . وَبَقِيتُ جَارِنَةً
(لَزِمْتُ مَكَانِي فَلَمْ أَتْرُكْهُ) سَاعَةً بَعْدَ أُخْرَى ، مُحَاوِلَةً أَنْ أَتَعْرِفَ : مِنْ
أَيِّ مَكَانٍ قَدِيمِ هَذَا الزَّائِرُ الْقَرِيبُ ؟ وَفِي أَيِّ مَوْطِنٍ وَلِدَ وَعَاشَ ؟ وَعِنْدَ
أَيِّ الْأَنْبَاءِ (النَّاسِ) الْغِلَاطِ الْأَكْبَادِ (الْقُصَاوِ الْقُلُوبِ) كَانَ ؟ وَكَيْفَ
طَاوَعْتَهُمْ قُلُوبُهُمْ الْفَاسِيَةَ عَلَى طَرْدِ هَذَا النِّسْكِينِ النَّعَاسِ إِلَى الْفَرَاءِ (الْخَلَاءِ) ،
وَالضَّنِّ (الْبُخْلِ) عَلَيْهِ بِالْقُوْتِ وَالنَّوْأَى ، وَتَعْرِضِهِ لِقُوْتِ - جُوعًا
وَبَرْدًا - فِي مَثَلِ هَذَا الشِّتَاءِ الْفَارِسِ (الشَّدِيدِ الْبَرْدِ) ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَرْفَلَ الْمُمْرِ .

٥ - ذِكْرِيَات

لَقَدْ ذَكَّرْتُ - حِينَ رَأَيْتُ هَذَا النَّعَاسَ - مَا لَقِيتُهُ - فِي سَالِفِ
أَيَّامِي - مِنَ الْمَسَامَلَةِ السَّيِّئَةِ . فَقَدْ ابْتَلَيْتُ - فِي مُقْتَبِلِ شَبَابِي - بِزَارِعِ
شَرِّسٍ غَضُوبٍ عَيُوسٍ ، وَكُنْتُ قَدْ بَلَّغْتُ الرَّابِعَةَ مِنْ عُمرِي - فِيمَا
أَذْكُرُ - وَجْهَ السَّنِّ الَّتِي بَدَأْتُ عَمَلِي فِيهَا . وَكَانَ يَشْتُمُنَا كُلَّمَا أَبْصَرَنَا ،
وَيَرْكَلُنَا (يَرْفُسُنَا) بِرِجْلِهِ كُلَّمَا لَقِينَا . وَمَا أَذْكُرُ ، أَنَّنِي رَأَيْتُهُ - فِيمَا
رَأَيْتُهُ - مُسْرُورًا قَطُّ . فَقَدْ كَانَ لِمَوِّ حَظْلِهِ وَحَطْنَانَا مَنُفُوبًا عَلَى أَعْصَابِهِ
(سَرِيعِ الْهَلِجِ) .

٦ - فِي الْمَرَاتِ

وَلَقَدْ دَعَيْتُ إِلَى الْخُفْلِ - حِينَئِذٍ - أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَأَنَا فِي ثَلَاثِ السَّنِّ ،
وَالِي جَانِبِي ذَيْلٌ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ (مِنْ الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ) أَتَمَّهُ « دَهَانٌ » :
قُوْتُهُ صِنْفٌ قُوْتِي ، لِأَنَّ عُمرَهُ صِنْفٌ عُمرِي . وَقَدْ عَرِنَ هَذَا الْحِصَانُ عَلَى
حَرْثِ الْأَرْضِ زَمَنًا طَوِيلًا . وَلَقَدْ حَاوَلْتُ إِمْسَاكِي (بَذَلْتُ جُهْدِي) حَتَّى

لَا أَتُهُم بِالْقَمِيرِ . وَلَسْتُ أَتَى لَمِيعَةً أَمَى إِلَيَّ أَفْضَتْ بِهَا إِلَى - فِي سِنِّ
الْعُقُولَةِ - فَقَالَتْ : « إِنَّا - مُمْشِرُ الدَّوَابِّ - جَدِيرَاتُ أَنْ تَبْذُلَ لِلْعَمَلِ
بِحَدِّ مَا كُلُّهُ . لِأَنْ صَاحِبِنَا : رَبُّ هَذِهِ الصُّمَيْعَةِ خَلِيقُ (جَدِير) بِأَنْ
تَفْقَى فِي الْإِخْلَاصِ لَهُ ، فَلَا تَقْصُرْ فِي خِدْمَتِهِ . فَهُوَ خَيْرُ الطَّنِيعِ ، يَفِضُ
قَلْبُهُ حَنَانًا وَرَحْمَةً ، وَلَا يَقْضُ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ فِي سَبِيلِ إِسْمَاعِنَا وَالتَّرْفِيهِ
(التَّخْفِيفِ) عَنْ قُلُوبِنَا » .

وَقَدْ عَمِلْتُ ، بِتَصِيحِهَا فَحَاوَلْتُ جَهْدِي إِذْ ضَاءَ حَارِثُ الْحَقْلِ ، وَلَيْسَكُنِي
- عَلَى مَا بَدَلْتُ - لَمْ أَظْفَرْ بِإِرْصَانِهِ . فَدَبَّ النَّاسُ إِلَى قَلْبِي ، وَأَقْبَنْتُ
أَنْ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّحَبُّبِ إِلَيْهِ وَاسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِ إِنَّمَا فِي مُحَاوَلَةٍ غَيْرِ مُجْدِيَةٍ .
فَلَمَّا وَرَّ (أَتَى) ذَلِكَ فِي نَفْسِي ، وَاسْتَقَرَّ فِي خَلْدِي (قَلْبِي) ، صَمَبْتُ عَلَى
الْعَمَلِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَى الضَّجْرِ وَالْمَلَلِ .

آه - بِاعْرِيزِي - كَمْ كُنْتُ مُتَمَيِّتَةً مَجْهُودَةً وَكَمْ أَضْنَانِي الدُّعَابُ
صَاعِدَةً هَابِطَةً ، فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ الْوَاسِعِ ! وَفِي أَحْيَالِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ،
خَارَتْ (صَغَفَتْ) قُوَايَ وَكِدْتُ اسْتَقْطُ مِنْ فَرَطِ الْإِغْيَاءِ (شِدَّةِ التَّسْبِيرِ) .
فَهَمَمْتُ أَنْ أَهْفَ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْعَمَلِ ، وَأَكْفَ (أَمْتَنَعَ) عَنْ الْحَرَكَةِ .

٧ - حديث الزميل

وَكَأَنَّمَا أَحْسَنَ ذَمِيلِي الْهَرَمُ مَا يُسَاوِرُ (مَا يُنَالِبُ) نَفْسِي مِنَ الْأَلَمِ ،
قَالَ لِي : « أَبْشِرِي - أَيُّهَا الْفَنَاءُ النَّشِيطَةُ الذَّرَكِيَّةُ - قَدْ أَشْرَفَ التَّهَارُ
عَلَى نِيَابَتِهِ - أَوْ كَادَ - وَتَرَاتِ الشَّمْسُ لِلْمَرْوَبِ خَلْفَ هَذِهِ التَّلَالِ
وَالْآكَامِ . وَلَمَّا لَا تَحْرَثُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أَخْدُودًا أَوْ أَخْدُودَيْنِ فَقَطْ ، ثُمَّ
نَعُودُ إِلَى خَطِيرَتِنَا مُسْرُورَيْنِ . » فَاسْتَعَدْتُ - حَيْثُذ - شَيْئًا مِنَ النَّشَاطِ ،
وَجَذَبْتُ الْيَحْرَاتِ بِقُوَّةٍ ، ثُمَّ قُلْتُ لِذَهَابِنَا : « مَا هُوَ الْأَخْدُودُ ؟ » فَقَالَ لِي :
« بَيْنَ هَذِهِ الشَّوَاتِ (رُؤُوسِ الْأَخَايِدِ) - الْبَاوِيَةِ أَمَامَكَ - تَرَيْنِ
الْأَخَايِدَ ، وَمِمَّنْ مِنْ عَمَلِ الْيَحْرَاتِ » .

قُلْتُ لَهُ : « وَكَيْفَ يَنْعَلُهَا الْيَحْرَاتُ ؟ » فَقَالَ : « إِنَّ هَذَا الْيَحْرَاتِ
الَّذِي نَجْرُهُ ، فِي أَسْفَلِهِ مُدَيَّةٌ (سِكِّينَةٌ) صُنْبَةٌ كَبِيرَةٌ الْعَجْمِ . فَعَى تَنْشَقُّ
الْأَرْضَ (الْأَرْضَ) ، وَتَقْلِبُ ثَرَابَ الْحَقْلِ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ (تَجْمَلُ أَعْلَاهُ
أَسْفَلَهُ) ، كُلَّمَا مَرَّ بِهَا الْيَحْرَاتُ الَّذِي نَجْرُهُ .

قُلْتُ لَهُ : « لَمَلَّهْمُ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يُذْهِبُوا مَا بَقِيَ مِنَ الْخَشَائِشِ عَلَى

ظَهَرَ الْأَرْضَ إِلَى جَوْفِهَا . « قَال : « نَعَمْ » . قُلْتُ : « وَأَيُّ فَايَذَرُ لَكُمْ مِنْ هَذَا ؟ » .
 قَال : « لِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرْعِ إِلَّا إِذَا قَلِبَ عَلَيْهَا إِلَى أَسْفَل . وَمَتَى
 تَمَّ لَنَا ذَلِكَ قَاتِنَا - حِينَئِذٍ - نَجْرُ آلَةٍ أُخْرَى تُسَمَّى السِّلْقَةَ وَهِيَ الَّتِي
 تُسَلِّقُ بِهَا أَرْضُ الْحَقْلِ (تَسْوَى) لِنَقْطِيَ مَا يَبْذُرُهُ فِيهَا الزَّارِعُ مِنْ
 الْحُبُوبِ » . قُلْتُ لَهُ : « وَمَاذَا يُعْجِدُهُمْ (مَاذَا يُفِيدُهُمْ) هَذَا الْمَاءُ
 (التَّبْ) ؟ » قَال : « لِاسْتِجَالٍ إِلَى الرَّاحَةِ بِشَيْرِ التَّمْبَرِ ، وَمَنْ لَمْ يَزَكِّبِ
 الْأَهْوَالَ لَمْ يَتَلِ الرَّغَائِبِ . وَلَا سَبِيلَ لِهَيْبَةِ الْأَرْضِ لِلزَّرَاعَةِ إِلَّا بَعْدَ
 حَرْثِهَا وَتَسْلِيْفِهَا (تَسْوِيْهَا) وَسُقْيَا ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

يُظْهَرُ لِي أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ - يَا قَاسِمَةُ - مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْأُولَى ،
 وَبِإِطْلَاقِ الْمَعَارِفِ الضَّرُورِيَّةِ مَا يُنَاسِبُ سَبْكُ ؟ « قُلْتُ لَهُ - فِي
 اسْتِغْلَامِ - وَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ هَمِيهِ ، وَصِدْقُ حُكْمِهِ عَلَى الْأُمُورِ :
 « صَدَقْتَ - يَا دَهَّانُ - قَاتِنِي عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا أَزَالُ جَاهِلَةً مُتَخَلِّفَةً (مُتَأَخِّرَةً)
 فَرِدْنِي عِلْمًا أَزِدُّكَ شُكْرًا » .

فَأَجَابَنِي مُتَطَلِّقًا : « لَيْسَ أَشْغَى إِلَى تَقْيِي مِنْ تَحْقِيقِ مَا تَطْلُبِينَ
 بِإِقَامَةٍ - وَلَكِنْ لَمْ يَتَّقِ لَدَيْنَا مِنَ النَّهَارِ إِلَّا دَقَائِقُ سِيرَةٍ ، وَمَتَى فَرَعْنَا

مِنْ حَرْثِ هَذَا الْأَخْشَدِ وَجَعْنَا إِلَى النَّارِ » .

٨ - طائفة من المعلومات

فَصَرَحْتُ مُتَعَجِّبَةً : « أَهْلِكُنَا انْتَهَيْنَا بِرِيَا أَلَمْ تَقُلْ لِي إِنَّا سَنَحْرِثُ
 أَخْذُودًا آخَرَ ؟ » قَال : « لَقَدْ فَرَعْنَا الْآنَ مِنْ حَرْثِهِ - عَلَى طَوْلِهِ - دُونَ
 أَنْ تَشْمُرِي بِمَا بَدَلْتِهِ مِنْ جُحْدٍ . وَمَرَّ الْوَقْتُ سَرِيحًا فَلَمْ تَقْطِئِي (لَمْ تَنْتَبِئِي)
 إِلَى انْقِصَاءِ الْيَوْمِ » .

...

ثُمَّ فَصَّ عَلَى « دَهَّانُ » مَرَائِفَ مِنَ الْمَعَارِفِ الثَّاقِمَةِ ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ
 مَا تَطْلُبُهُ مِنَ اللَّذَائِدِ عِنْدَنَا كَالشَّيْبَرِ وَالْقَوْلِ وَالْبَرَسِيمِ إِنَّمَا يُخْرَجُ
 مِنْ الْأَرْضِ .

ثُمَّ قَالَ لِي فِيهَا قَالَ : « وَلَنْ تُنْبِتَ لَنَا الْأَرْضُ هَذِهِ أَلَمَّا كَلَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
 تَبْذُلَ جُحْدًا فِي حَرْثِهَا وَتَزْجِفَهَا ، وَيَبْذُلَ الزَّارِعُ جُحْدَهُ فِي غَرْسِهَا وَسُقْيَا ،
 لِأَنَّ فِيهَا أَيْضًا أَكْثَرَ غِذَائِهِ وَغِذَاءَ بَنِي جَنْسِهِ . كَذَا قَصَّرَ أَحَدُ مِنَّا فِي شَيْءٍ مِنْ
 هَذَا كُلِّهِ لَمْ نَنْظُرْ بِمَا نَأْكُلُهُ غَيْرَ الْحَشَائِشِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ هُوَ بِنَبَاتِ الْأَرْضِ » .

ثم قال لي وَنَحْنُ عَائِدَانِ إِلَى الْحَظِيرَةِ : « فَإِذَا سَأَلْتَنِي رَأْيِي ، فَإِنِّي لَا أَكْتُدِّكَ أَنْتَنِي أَفْضَلُ - أَنْتَ رَمَزٌ - أَنْ ائْجَلْ وَأَكْذَحْ (أَجْلَعِدْ) - مُوَلِّ يَوْمِي - لِأَوْفَرِ زَاوِي (أَكْثَرِ قُوِّي) ، عَلَى أَنْ أَسْتَنْسِمَ لِلْكَسَلِ ، وَأُخْلِدَ (أَسْكُنَ) لِلرَّاحَةِ ، ثُمَّ أَهْلِكَ جُوعًا » .

٩ - ثَمَرَةُ السَّرَفَةِ

وَلَمَّا بَلَّغْنَا الْحَظِيرَةَ لَمْ نَجِدْ فُرْصَةً لِإِتْمَامِ حَدِيثِنَا لَيْلًا ، لِأَنَّ رَمَضِي لَمْ يَكُنْ قَرِيبًا مِنْ رَمَاطِ زَيْبِي . عَلَى أَنِّي - بَعْدَ أَنْ خَلَوْتُ إِلَى نَفْسِي - أَتَمَمْتُ النَّظَرَ ، وَأَطَلْتُ الْفِكْرَ ، فِيمَا أَقْصَى بِهِ إِلَى صَاحِبِي مِنْ حَدِيثٍ . وَاعْتَرَمْتُ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - أَنْ أَصَافَ مِنْ جُهْدِي فِي سَبِيلِ الْقَتْلِ ، غَيْرَ مُتَبَيِّنَةٍ بِمَا أَقَامَهُ مِنْ عَنَاءٍ وَجُهْدٍ . وَسَوَاءٌ عَلَيَّ أَقْدَرُ لِي الْحَارِثُ مَا أَبْذُلُ مِنْ هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ أَمْ لَمْ يَنْقُذْهُ .

وَأَرَادَ أَهْلُهُ أَنْ يُجَزَلَ (يُعْظَمَ) مُكَافَأَتِي عَلَى حُسْنِ رَيْبِي ، فَبَسَّرَ لِي - فِي غَدِي (فِي الْيَوْمِ التَّالِي) - حَارِثًا آخَرَ ، كَانَ عَلَى الْقَكْسِ مِنْ سَابِقِي ، آيَةً فِي الْبَشَاشَةِ وَالطُّغْيِ . فَكَانَ يُلْقِنِي بِأَحَبِّ الْأَقْلَابِ إِلَى نَفْسِي . فَسَهَّلَ

عَلَيَّ بِذَلِكَ كُلَّ صَعْبٍ ، وَبَسَّرَ لِي بِطُفْفِهِ كُلَّ عَسِيرٍ .

وَكَانَ صَدِيقِي « دَهْمَانُ » رَاوِيَةً بَارِعًا ، وَقَلَمًا مُبْدِعًا قَاتِنَ الْحَدِيثِ . فَكَمَسَ عَلَيَّ - حِينَئِذٍ - مِنْ أَثْنَاءِ الثَّوَابِ كُلَّ مُثْرِبٍ مُنْجِبٍ .

وَمَا أَنَسَ مِنْ بَدَائِهِ لَا أَنَسَ مَا زَوَاهُ لِي مِنْ طَرَائِفِ صَاحِبِهِ : « أَبِي تَوَلَّى » الَّتِي قَصَّهَا - قَبْلَ مَوْتِهِ - عَلَى صَدِيقِي « دَهْمَانُ » ، لَقَدْ أَحْبَبْتُ الْحَيِيرَ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - وَعَرَفْتُ لَهُمْ فَضْلَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ ، عَلَى دَوَابِ الْأَرْضِ قَاطِنَةً (جَمِيعًا) ، وَمَا انْقَرَدُوا بِهِ مِنْ مَزَايَا بَاهِرَةٍ ، وَخِلَالِ (صِفَاتِ) نَادِرَةٍ .

١٠ - ضَوْءُ الصَّبَاحِ

وَهَكَذَا قَضَيْتُ كَلِمِي مُسْتَرْسِلَةً فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الدَّكْرِ يَا تِ ، حَتَّى رَأَيْتُ السَّائِسَ هَاصِلًا إِلَيْنَا مِنْ غُرْفَتِهِ . وَكَانَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ، يَنْفُذُ إِلَى حَظِيرَتِنَا فَيُوقِظُ النَّيَامَ ، كَهَلِ اسْتَيْقَظَ صَبْتُنَا « أَبُو زِيَادُ » ؟ أَلَا لَيْتَ شِعْرِي : كَيْفَ حَالُكَ يَا ابْنَ عَمٍّ ؟ كَيْفَ قَضَيْتَ لَيْلَتَكَ ؟ أَتُرَاكَ اسْتَرْخَتْ إِلَى أَخْلَايِكَ السَّيِّدَةِ ؟ وَآيُ الْأَفْكَارِ السَّارِقَةِ - أَوْ الْحَرِيْقَةِ - تَطْلُوفُ بِرَأْسِكَ الْآنَ ؟

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ يَدَهَا لَا تَخْلُوَانِ مِنْ خَفَتِهِ (مِقْدَارِ مِلٍّ كَفَيْهَا)
مِنْ الشَّعِيرِ ، أَوْ كَسْرَةِ مِنَ الْخُبَيْرِ ، أَوْ قَلِيلٍ مِنَ الْيَلُجِ ، أَوْ خُرْغَةٍ
مِنْ الدَّرِسِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْلَعَةِ الَّتِي أُحْيَاهَا . وَهِيَ
تُكْثِرُ مِنَ التَّوَدُّدِ (التَّحَبُّبِ) إِلَى .

٢ - يَنْ « قَسَامَةً » وَ « زَادَ الرُّكْبَ »

هَاهُوَذَا « شَفِيقٌ » قَادِمًا لِيَنْظُرَنِي ، وَيَحْسَنِي (يَنْفَعُ التَّرَابَ عَنِّي)
قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَرْعَى . إِنَّهُ يَعْلَمُ كَمْ أَتَسَهَّجُ حِينَ يَنْشَطُ شَعْرِي كُلَّ
صَبَاحٍ ، سَوَاءٍ فِي أَوْقَاتِ الرَّاحَةِ وَالْعَمَلِ . وَإِنْ مُهِرَى الْعَصِيرِ تَنْتَبِلُ قَسَمُهُ
مَرَحًا وَسُرُورًا كُلَّمَا خَرَجَ مَعِيَ إِلَى الْمَرْعَى . لَقَدْ تَمَاسَرْتُ فِي زَمَنِ قَصِيرٍ ،
وَمَالَتُ أَفْدَائِي بِالْيَقَاسِ إِلَى جَنِينِهِ . وَهُوَ فِي جَنِّ نَشَاطِلِهِ (عُتُقُوَانِهِ وَقُوْتِهِ) ،
فَلَا يُطِيقُ أَنْ يَغْبَسَ فِي مَرَبِطِهِ دُونَ أَنْ يَغْرَى فِي الْمَرْعَى كَمَا يَتَشَاءُ .

وَقَدْ سَأَلَنِي ذَاتَ يَوْمٍ : « لِمَاذَا لَا يَتْرُكُونَنَا خَارِجَ الْإِمْتَلَابِ - لَيْلَ
نَهَارٍ - يَا أُمَامَةُ ؟ » فَأَجَبْتُهُ : « لِأَنَّ الْفَرْدَ - فِي هَذَا الْفَصْلِ - قَارِسٌ
(شَدِيدٌ) . وَمَعَ انْقِرَافِ (انْتَهَى) الْفَصْلِ ، فَإِنَّا نَمِيشُ خَارِجَ الْحَظِيرَةِ
لَيْلَ نَهَارٍ . »

الفصل الثالث

١ - الطَّلْفَةُ الْمُحْسِنَةُ

لَقَدْ رَوَيْتُ لَكَ - أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْغَزِيرُ - مَرَفًا يَسِيرًا مِمَّا مَرَّ بِي فِي
حَيَاتِي النَّامِيَّةِ . وَإِنِّي لَقَامَةٌ عَلَيْكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَخْبَارِي الرَّاهِنَةِ لِأَمَلِ
الْمَاضِي بِالْحَاضِرِ :

فَاعْلَمْ - أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْبَارِعُ النَّشِيطُ - عَلِمْتَ الْخَبَرَ ، وَسَلِمْتَ مِنْ
كُلِّ سَيِّئٍ : أَنِّي قَدْ أُمْتَحَنْتُ مُرْتَلِحَةً فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ عَنَاءٍ . فَلَا
يَجْعِدُنِي أَحَدٌ بِعَمَلٍ مُضَيٍّ (مُضَرٍّ) لِأَنِّي مُتَعَبَةٌ بِتَرْيِقَةِ وَلَدِي الْعَصِيرِ ؛
« زَادَ الرُّكْبَ » الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . وَقَدْ قَالَتْ عَنْهُ « سُمَادُ » بِنْتُ صَاحِبِ
السُّكَّرَةِ (بِنْتُ صَاحِبِ الْأَرْضِ الَّتِي نَعْمَلُ فِيهَا) : إِنَّهُ يُشْهِبُنِي
كَثِيرًا ، وَفِي أَسْفَلِ وَجْهِهِ مِثْلُ تِلْكَ الْبُقْمَةِ الَّتِيضَاءُ الَّتِي تَمِيزُهَا . وَإِنْ
« سُمَادُ » لَا تَخَافُنِي أَبَدًا . وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً الْجِسْمِ جِدًّا ، وَأَنَا كَبِيرَةٌ
النَّجْمِ جِدًّا . وَهِيَ تَرَانِي أَقْبِلُ عَلَيْهَا كُلَّمَا جَاءَتْ إِلَى السُّكَّرَةِ (الْمَرْزَعَةِ) .

ما أعجب أثر هذا الطفل، وما أشد ولوعه وشغفه بالقضاء والحركة .
لقد سيع صوت السائس - وهو يفتح باب الخطيرة - فاستولى عليه
المرح، وتسلكت الهبة، وظل يقفز ويجري مسروداً، ورفس أرضه
- بعضها ببعض - من شدّة الفرح .

٣ - أبو زياد

ثم وقعت فجأة - مقدار لحظة - ونظر وراءه مذهوشاً . فالتفت
فرأيت « شقيقاً » يخرج من الإسطبل ذلك الحمار المسكين الذي
شيلت بأثره طول ليلتي . وما كاد ولدي يراه حتى سألني :
« ما اسم هذا الدابة السجور؟ وهل يصيبنا منها ضرر؟ »
فقلت له مبسطة : « كلا ، أيها الأبله العريز . إنه ابن عم لنا ، وقد
لقي من سوء السمالة شيئاً كثيراً ، كما يبدو (كما يظهر) من هزال جسمه
ومستطير قوته . »

٤ - حيرة الضيف

ثم منيت متجهة إلى الضيف حتى دأبته (قاربته) ، فقلت له في تلطف

وتودد : « سيد صباحك يا « أبا زياد » ! لعل صحتك اليوم أحسن منها
أمس ! » وكان هذا التخلوق الثايس لم يالك . مثل هذا التودد وتلك
الاحلافة ، فلم يعرف كيف يجيب ، ولا ماذا يقول . فلتأتفت قائلة :
« أخشى أن تكون قد آتيت من التاعبد ما أعجزك وناء به استهلاك
(ما لم تطلق حمله) ! ألا تحب أن تلتحي (تقصد) يا هذو الناحية
الشامية ، لتحدثت مما ، قليلاً من الوقت . »

فتوقف لحظات قليلة يفكر ، وقد بدت (ظهرت) الحيرة على وجهه ،
كأنما كان يتردد في تصديق ما سمع ، ويريد أن يثبت من صدق
مودتي ، ويستوثق مما أقول . فأجابني على استحياء (متحججاً) :
« لك ما تريدن - يا سيدي - فأرأى ناساً فيها تقترحين ! »

٥ - جمال الطبيعة

فقلت له : « هلم إلى (أقبل على) ، فإن الجو صحو إن السماء ساقية
لا غيم فيها . ولا شك في أن مثل هذا الصباح السعيد كفيلاً بأن يدخل
الهناء والبهجة في قلب أشد الكائنات حزناً وتأساً . ألا تصني إلى

الطُيُور ، وَهِيَ فَوْقَ الْأَغْصَانِ ، وَفِي أَعْلَى السُّورِ ؟ اسْتَمِعْ إِلَى صَوْتِ
الْقَنْبَرَةِ فِي السَّمَاءِ . وَانْظُرْ إِلَى الْأَوْرَاقِ النُّخْضَرَةِ ، وَهِيَ تَرْفَعُ رُءُوسَهَا ،
تَتَصَرَّفُ عَلَى النَّالِمِ مِنْ أَكْثَابِهَا الَّتِي تَقْتَحُ . وَتَأْمُلُ هَذِهِ الْأَهْمَارَ
الْبَاسَةَ ، وَإِلَى جَانِبِهَا الْوَرُودَ وَهِيَ تَقْنَحُ أَعْيُنَهَا مَبْتَهَجَةً لِتُحْيِيَ الشَّمْسَ .

٦ - سِنَّهُ الْفَطَامِ

قَلَمٌ بِحُرٍّ (لَمْ يَرُدَّ) جَوَابًا ، بَلْ قَهَرَ بِحَوَارِي . وَكُنْتُ وَاقِفَةً فِي زَاوِيَةٍ
قَصِيَّةٍ (بَعِيدَةٍ) فِي الْحَقْلِ ، حَيْثُ الْحَتَائِشُ اللَّذِيذَةُ قَدْ بَلَغَتْ النَّدَى .
قُلْتُ لَهُ : «الآنَ نَبْدًا فَطُورًا ، ثُمَّ تَرَفَّدُ شَيْئًا (بِمَضِ الْوَقْتِ) رَيْنًا
يَسْتَمِعُ (يَسْمَعُ) وَلَدِي «زَادَ الرُّكْبُ» بِالْعَرَبِيِّ فِي هَذَا التَّرْتَمِي الْخَمِيبِ !
لَقَدْ غَدَوْتُهُ بِلَبَانِي قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ بِهِ مِنَ الْإِضْغَلِيلِ .

فَسَكَتَ «أَبُو زَيْدٍ» . وَبَلَّغْنَا شَيْئًا (زَمَنًا قَلِيلًا) ، نَاكُلُ فِي مَسْتٍ .
وَعَمِمْتُ رَمَّةً أُخْرَى أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْكَلَامِ . وَلَكِنَّهُ ابْتَدَرَنِي (أَسْرَعَ إِلَى)
قَائِلًا : «كَيْفَ تُرْمِيزِينَ هَذَا الْمُهْرَ ، وَهُوَ - فَيَا يَنْدُوِي - قَدْ جَاوَزَ سِنَّ
الرَّمَاةِ ؟ كَمْ مُعْرَمُهُ الْآنَ ؟»

قُلْتُ لَهُ : «سِنَّهُ أَسَابِغُ قَطَطٍ . وَيُظْهَرُ أَنَّهُ اسْتَمْرَأَ دَرَى (اسْتَلْطَبَ
لَبَنِي) الذَّيْمِ (الكَثِيرِ السَّمَنِ) ، فَقَدْ نَمَاءَ لَبَنِي وَأَمْتَنَهُ . وَلَنْ أَطْلِعُهُ قَبْلَ
أَنْ يُتِمَّ الشَّهْرَ الرَّابِعَ مِنْ مُعْرَمِهِ عَلَى الْأَقْلِ .»

٧ - الْحَوَافِرُ وَالْأَغْلَافُ

قَالَ : «وَلِمَاذَا ؟» قُلْتُ : «لَا بُدَّ أَنْ أَوْصِيَهُ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِأَسْنَانِهِ
الَّتِي بَنِيَتْ أَسْنَانُهُ الْحَقِيقِيَّةَ ، الَّتِي يَأْكُلُ بِهَا الطَّعَامَ الصَّلْبَ وَيَنْصَعُهُ . وَلَنْ
يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْضَى تِلْكَ الْمُدَّةُ . مَا أَعْجَبَ سُؤَالَكَ ، يَا أَبَا زَيْدٍ !
لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُكَ عَارِفًا تَفْعِيلَ هَذَا كَلَمِهِ ، لِأَنَّكَ تَنْسَبُ إِلَى أَسْرَتِنَا .»
قَالَ مُتَعَمِّيًا مِمَّا سَمِعَ : «أَكْذَلِكَ تَقْعِدِينَ ؟ أَنْتِ فَرَسٌ أَلَيْسَ
كَذَلِكَ ؟» قُلْتُ لَهُ : «صَدَقْتَ . وَأَنْتِ مَنْ تَكُونُ ؟ إِنْ الْفَرَسَ وَالْحِمَارَ
يَنْتَسِبَانِ إِلَى أَسْرَتِهِ وَاحِدَةٍ . وَحَسْبُكَ دَلِيلًا عَلَى صَدَقِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهِ :
أَنَا جَمِيعًا مِنْ ذَوَاتِ الْحَوَافِرِ (الطَّلَفِ غَسِيرِ الْمَشْقُوقِ) . أَلَا تَرَى
أَفْدَأَمْنَا لَيْسَ فِيهَا أَصَابِغُ . وَلَا كَذَلِكَ صَوَاحِبُنَا ذَوَاتُ الْأَغْلَافِ ،
أَعْنِي : ذَوَاتِ الْحَوَافِرِ الْمَشْقُوقَةِ : كَالثَّنْبَجَةِ وَالْبَقَرَةِ وَالْفَزَالِ وَالْمِزْيِ



وَالْقَمَرِ وَالْجَامُوسِ .

إِنَّ الْحَافِرَ لِأَبْنَاءِ أُسْرَتِنَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ الطُّلْفِ الَّذِي تَتَنَازَرُ بِهِ أُسْرَةُ الْبَقَرَةِ وَالشَّاةِ وَالظَّبْيِ وَشِبْهِهَا . وَالْحَافِرُ وَالطُّلْفُ كِلَاهُمَا لِلدَّابَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْقَدَمِ لِلْإِنْسَانِ . وَلِهَذَا الدَّوَابُّ تَفْرَكُنَا فِي أَشْكَالِ الْخَشَائِشِ وَتُخْتَلِفُ عَنْهَا بِفِرَاقِهَا .

أَمَّا ذَوَاتُ الْأَخْفَافِ كَالْجَبَلِ وَالشَّعَامِ ، فَإِنَّ حَوَافِرَنَا تَتَنَازَرُ عَنْ أَخْفَافِهَا بِالصَّلَابَةِ ، كَمَا تَتَنَازَرُ ذَوَاتُ الْأَعْلَافِ بِفِرَاقِهَا عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَخْفَافِ .

فَكَيْفَ جَعَلَتْ هَذِهِ الْبَسَائِطُ (الْمُتَلَوِّمَاتِ الْأَوَّلِيَّةِ) ، وَلِمَاذَا نَسِيَتْهَا — يَا أَبَا زَيْدٍ — وَهِيَ لَا تَتَكَادُ تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ؟

٨ — أُسْتَانُ الدَّوَابِّ

وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ أُسْتَانِنَا — مَسْمَرِ الْخَيْلِ — فَلَمَّا تَبَدَّلُ فِي نَفْسِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَبَدَّلُ فِيهَا أُسْتَانُكُمْ ، فِي زَمَنِ مُطُوعَاتِنَا وَمُطُوعَاتِكُمْ عَلَى السَّوَاءِ .

فَقَالَ « أَبُو زَيْدٍ » ، وَقَدْ تَمَلَّكْتُ الْمَجَبِّ (اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّفْعَةُ) : « أَكْذَلِكَ تَخُنْ وَأَنْتُمْ ؟ مَا كُنْتُ لِأَعْلَمَ هَذَا مِنْ قَبْلُ . وَغَايَةُ مَا عَرَفْتُهُ : أَنَّهُ كَانَ لِي أَرْبَعُ أُسْتَانٍ حِينَ كَانَتْ سَيِّئَةً خُسْفَةً أَيَّامًا ، ذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ أُمِّي ، وَلَوْلَا مَا عَرَفْتُهُ . »

فَقُلْتُ لَهُ : « ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ : كَانَتْ لَكَ أَرْبَعُ أُسْتَانٍ — حِينَئِذٍ —

كَمَا كَانَتْ لَنَا جَبِيماً . وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا أَتْيَاباً أَتَيْ : أَنْسَانَا مُدَيِّبَةً ،
لَا تُعِيدُ شَيْئاً ، وَلَا تَصْلُحُ لِمَصْنَعِ الطَّعَامِ . وَمَتَى نَمَّ نَمَاؤُنَا أَمِنَحَ لِكُلِّ مِنَّا
سِتَّةَ أَضْرَاسٍ فِي آخِرِ فَكِّينَا . وَهِيَ نَافِئَةٌ لِلتَّقْفَمِ (لِتَكْثِيرِ الطَّعَامِ الْيَاسِرِ
بِأَطْرَافِهَا) ، كَمَا أَنَّهَا نَافِئَةٌ لِلتَّقْطِيعِ ، وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَأْكُلَ طَعَامَنَا ، إِذَا
لَمْ يَكُنْ لَنَا تِلْكَ الْأَضْرَاسُ الْقَوَالِيعُ الَّتِي تَرَاهَا فِي آخِرِ الْخَنَكِ ، وَبَتَّيْرَهَا
لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَطْعَنَ الطَّعَامَ .

٩ - جِوَارُ الصِّدِّيقَيْنِ

قَالَ «أَبُو زَيْد» وَهُوَ يَقْضُمُ الْحَشَائِشَ (يَكْثِرُهَا بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهِ) :
«هَذَا حَقٌّ لَا رَبَّ (لَا شَكَّ) فِيهِ ! لَقَدْ مَرَّ بِي ذَلِكَ الْهَدُودُ . وَظَهَرَ لِي
أَنَّكَ تَمْلِكِينَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُتَشَبِّهِةِ . فَخَبِّرِي - يَا ابْنَةَ عَمٍّ -
مَتَى جِئْتِ إِلَى هَذِهِ الصِّبْيَةِ ؟
فَأَجَبَتْهُ وَقَدْ دَهَشَتْ مِنْ سَدَاجَتِهِ : «لَقَدْ وُلِدْتُ فِيهَا . فَخَبِّرِي - يَا ابْنَةَ
عَمٍّ - مِنْ أَيِّ مَسْكَانٍ حَضَرْتَ ؟
فَأَجَابَنِي ، وَهُوَ يَحْكُ طَعْرَهُ فِي أَحَدِ الْقَمَدِ الْمُثْبَتِ بِهَا سُورُ الْمَرْحَى :

• ذَلِكَ مَا لَمْ أَنْتَبِتْ مِنْهُ . لَقَدْ مَرَزْتُ بِمَوَاطِنَ وَبُلْدَانٍ كَثِيرَةٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ
- عَلَى التَّحْقِيقِ - أَنْ أَذْكُرَ : فِي أَيِّ مَوْطِنٍ وُلِدْتُ !
وَلَسْتُ أَذْهَبُ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا تَذَرِينِ ، وَلَا أَعْلَمُ مِنَ الْحَقَائِقِ بِمِقْدَارِ
مَا تَعْلَمِينَ . وَلَكِنِّي - عَلَى ذَلِكَ - أَغْرِفُ أَشْيَاءَ أُخَرٍ ، مَا أَظُنُّكَ تَعْرِفُهَا ؟
فَقَدْ رَأَيْتُ - لِمَاسَتِي - كَثِيرًا مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ ؛ وَأَذْرَكْتُ - لِشِقَاقِي -
كَثِيرًا مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ ، وَدِدْتُ لَوْ جِئْتُهَا أَوْ لَسَيْتُهَا .

١٠ - «أَبُو تَوَلَبٍ»

إِنَّ النَّاسَ يَصِفُونَنِي بِالْبَاهَوِّ ، وَلَمَنْعِي كَمَا يَصِفُونَ . وَلَكِنِّي لَا أُخْشِبُنِي
قَدْ وُلِدْتُ أَبْلَةً أَوْ غَيْبًا . فَكَيْفَ تَحْكُمِينَ يَا ابْنَةَ عَمٍّ ؟
فَقُلْتُ لَهُ : «كَلَّا ، بَلْ ظَلَمْتُكَ يَا «أَبَا زَيْدٍ» ، فَأَنْتَ عَلَى التَّحْقِيقِ
بِأَبْلَةٍ وَلَا غَيْبٍ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ جِنْسَكَ مَمْرُوفٌ - بَيْنَنَا - بِالذَّكَاةِ وَالْعَبْرِ
عَلَى اخْتِمَالِ الشَّعَائِدِ ، مَوْصُوفٌ - عِنْدَنَا - بِدَمَائَةِ الْخَلْقِ (لِإِنِّ الطَّبِيعَ)
وَقَاءَهُ السَّرِيرَةُ (مَعَاةُ الشَّرِّ الَّذِي يُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهِ) . وَقَدْ حَدَّثَنِي أَحَدُ
أَسْدَقَائِي الْقَدَمَاءِ ، وَاسْمُهُ : «دَعْمَانُ» بِذِكْرِيَاتٍ مُتَّحِبَةٍ قَصَّهَا عَلَيْهِ أَحَدُ أَبْنَاءِ
(٥)

أَهْمَانَا الْمُتَوَقِّعِينَ (الْمَتَيْنِ) مِنَ الْحَمِيرِ، يُكْنَى: «أَبَا تَوَلَّى». وما أشكُ
في أَنَّكَ لَوْ صَحَّتَ قِصَّتُهُ وَخَوَاطِرُهُ، لَأَيَقَنْتُ أَنَّ هَذَا الْحِمَارَ، كَانَ أَذْكَى دَابَّةٍ
عَرِفْتُ فِي تَارِيخِنَا — مَنْشَرِ الذُّوَابِ — الْحَافِلِ بِالْفَرَائِبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا. وما
أَحْسَبُ أَنَّ حِمَارًا، كَانَتْ مَا كَانَ، قَدْ لَقِيَ — مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَأَحْدَانِهَا —
مِثْلَ مَا لَقِيَ هَذَا الْحَيَوَانُ الْعَالِمُ الشَّقِيُّ.

١١ - «أُمُّ شَحَاجٍ»

وَلَا أَكْتُمُكَ أَنَّنِي طَالَمَا أَبْصَرْتُ سَائِلًا «شَفِيقًا» يُعْجَبُ بِأُمِّ شَحَاجٍ
الَّتِي فِي صَيِّغَتِنَا، وَطَالَمَا قَالَ عَنْهَا: «إِنَّهَا أَذْكَى دَابَّةٍ رَأَى، وَأَفْطَنُ حَيَوَانٍ
عَرَفَهُ. وَهُوَ يُوَثِّرُ رُكُوبَ هَذِهِ الْأَتَانِ (الْحِمَارَةِ) — لِيُدَاعِيَهَا وَطَوَاعِيَهَا —
وَيُفَضِّلَهَا عَلَى دَوَابِّ التَّسْكِرَةِ كُلِّهَا. وَهِيَ فِي صَيِّغَتِنَا مَوْفُورَةُ الرَّاحَةِ، فَلَا
تَرَى أَحَدًا يُرْمِقُهَا (يُنْهَدِمَا) بِالْأَخَالِ. وَلَيْسَ لَهَا مِنْ عَمَلٍ بِشَيْءٍ إِلَّا
مَرَكَبَةٌ صَغِيرَةٌ تَجْرُهَا، يَسْتَقِلُّهَا (يَكْبُهَا) أَطْفَالُ صَاحِبِ الْعَيْتَةِ حِينَ
يَذْهَبُونَ إِلَى التَّدْرَسَةِ، وَحِينَ يَمُودُونَ.»

١٢ - شَكْوَى «أَبِي زِيَادٍ»

قَالَ «أَبُو زِيَادٍ» مَرْوِيًّا (مُتَأَنِّبًا مُفَكِّرًا): «إِنَّ حَظَّهَا أَسْعَدَ مِنْ

حَظِّي. أَلَا شَدَّ مَا اخْتَلَفَ التَّسْنِيمُ (مَا أَبْعَدَ نَسِيبَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ). وَمَا
أَغْرَبَ تَوَزُّعِ الْعُطْلُوطِ: حِينَ تُفَرِّقُ بِالسَّاعِدَةِ قَوْمًا، وَبِالشَّوْءِ آخَرِينَ!
أَمَا لَوْ عَلِمْتَ مَا تَرَضْتُ لَهُ مِنْ كَوَارِثِ (مَصَائِبِ) وَأَخْدَاتِ (أَحْوَالِ
وَشُؤُنِ)، لَتَجَبَّيْتُ مِنْ طُولِ تَجَلُّدِي وَاجْتِمَالِي وَصَتْرِي عَلَى الْمَكَارِهِ،
وَاسْتَوَلَى عَلَيْكَ الدَّهْشُ وَمَا كَابَدْتُهُ (قَاسَيْتُهُ) مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْفَوَاجِيعِ!
فَقُلْتُ لَهُ: «مِسْكِينُ أَنْتَ يَا «أَبَا زِيَادٍ» الْفَرَزُورُ! ارْقُدْ هُنَا، وَفُصِّ عَلَى
حَدِيثِكَ التَّجَبُّبِ، دُونَ أَنْ تُفْصَلَ مِنْهُ شَيْئًا. فَلَمَّا لَمْ تَشْعُرْ بِبَعْضِ الرَّاحَةِ
وَالْعُمَايُنَةِ، حِينَ تُفْصَلُ إِلَيَّ (تُخْبِرُنِي) بِذِكْرِيَّاتِكَ وَخَوَاطِرِكَ الْحَزِينَةِ.»
فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ»: «لَقَدْ شَوَّقَنِي — يَا «أُمُّ» وَسَوَادَةٌ — إِلَى حَدِيثِ
«أَبِي تَوَلَّى»: ذَلِكَ الْحِمَارُ الْعَالِمُ الذَّكِيُّ. فَخَبَّرَنِي بِمَا قَعَّ عَلَيْهِ صَاحِبُكَ:
«دَهَانُ» مِنْ أَخْبَارِهِ، وَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِأَمْرِي، فِيمَا بَعْدُ.»
فَقُلْتُ لَهُ: وَقَدْ اسْتَنْدَ شَفَقِي لِسَمَاعِ قِصَّتِهِ:

«إِنِّي قَاصَّةٌ عَلَيْكَ مَا تُرِيدُ مِنْ أَتَابِيهِ السُّعْيَةِ، بَعْدَ أَنْ تُفْصَلَ إِلَيَّ
بِدِخْلِكَ (تُخْبِرُنِي بِمَا تُخْفِيهِ فِي قَرَارِ قَلْبِكَ): فَإِنِّي — لِسَمَاعِ قِصَّتِكَ —
لَتَلِي شَوْقِي شَدِيدًا.»

فَتَجَدَّدْتُ دَهَشَتِي ، وَزَادَ عَجَبِي بِمَا سَمِعْتُ . وَتَفَرَّسْتُ (دَقَّقْتُ النَّظَرَ)
فِي مَلَامِيهِ ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي سَمَاعِ قِصَّتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « الْحَقُّ
يَا صَاحِبِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ ، أَنَّ مِنْ الْحَبِيرِ مَا يَمِيشُ بِمِثْلِ هَذَا الْعُمُرِ
الطَّوِيلِ . لَا تَعْجَبْ يَا ابْنَ عَمِّ . أَلَيْسَ مُرْرَكَ الْآنَ أَرْبَعَةُ أَثْنَالِ مُعْرِى
تَقْرِيًّا ؟ »

فَتَجَبَّبَ « أَبُو زِيَادٍ » ، وَغَرَّ رَأْسُهُ الْأَشْمَتَ (الْمُفْرَقَ) الشَّعْرَ ، قَائِلًا :
« أَحَقُّ مَا تَقُولِينَ ؟ أَكْمَلُ أَلَّا تَسْكُونِي قَدْ كَابَدْتِ (عَانَيْتِ) مِنَ التَّنَائِبِ
مِثْلَ مَا كَابَدْتُ . إِنِّي أَذْهِي : « أَبَا زِيَادٍ » أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ ، كَانَ ذَلِكَ
مَا أَطْلَقَ عَلَى مُنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَقَلَتْ (مَضَتْ) . وَإِنْ كَانَ يَلُوحُ
(يَبْدُو) لِلدَّائِرَتِي الضَّعِيفَةِ أَنَّ تَمَّةَ (هُنَاكَ) أَسْمَاءَ أُخْرَى أَطْلَقْتَ عَلَى فِي
أَسْمَاءِ طُفُولَتِي ، وَلَسِكُنِّي لَا كَادَ أَذْكُرُهَا الْآنَ .

٣ - أَيَّامُ السَّعَادَةِ

لَقَدْ وَلِدْتُ فِي بَلَدٍ نَاهٍ (بَعِيدٍ) عَنْ هَذَا الْبَلَدِ . وَحِينَ كُنْتُ طِفْلًا
صَغِيرًا ، انْتَقَلْتُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ نَاهٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ عَبَّرْتُ بِحُرٍّ وَاسِعًا جِدًّا فَوْقَ

الفصل الرابع

قِصَّةُ أَبِي زِيَادٍ

١ - ثَلَاثُونَ عَامًا

لَمْ يَكُنْ « أَبُو زِيَادٍ » يَسْتَسْلِمُ لِلرَّاحَةِ - فَوْقَ الْحَشَائِشِ الْقَرِيبَةِ
مِنْ سِيَاحِ الْعَقْلِ (سُورِهِ) - حَتَّى التَفَّتْ إِلَيَّ ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِ نَظَرَاتٍ
فَاحِصَةً ذَاتَ مَعَانٍ لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَرَاهَا . وَهِيَ تَذُلُّ عَلَى عَقْلِ ذَكِيٍّ
وَتَفْكِيرِ بَارِعٍ . قَالَ « أَبُو زِيَادٍ » : « لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَمِيفَ كُلَّ أَشْجَانِي ،
وَأَعْبُرَ عَنْ جَمِيعِ أَخْرَانِي ، لِأَنَّ الْكَلِمَاتِ لَا تَقِي بِإِظْهَارِ مَكُونٍ شُعُورِي .
وَلَوْ طَاوَعَنِي التَّشْبِيرُ عَمَّا أُرِيدُ ، لَمْ يُطَاوَعَنِي صَنْعِي وَاجْتِلَالُ حَصَّتِي الَّتِي
أَصْبَحْتُ تَتَأَذَى كُلَّمَا عَرَسَتْ لَهَا تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتُ الطَّوِيلَةُ الْمُؤَلِّمَةُ . وَلَا
أَسْكُتُكَ أَنَّ حَيَاتِي لَمْ تَكُنْ إِلَّا سِلْسِلَةً مُتَمِّلَةً انْخِلَاقَاتٍ مِنَ الْأَلَامِ
وَالنَّصَائِبِ . فَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَقَضَيْتُ مُعْرًا مَبِيدًا لَمْ يَكُنْ
يُثَلِّغُنِي حِمَارًا آخَرَ . وَمَا أَظُنُّكَ سَمِعْتَ أَنَّ حِمَارًا بَلَغَ مِنَ الثَّمَرِ ثَلَاثِينَ عَامًا ،
كَأَنَّ بَلَّتْ » .

مَرْكَبٍ تِجَارِيٍّ كَبِيرٍ، ظَلِمْتُ فِيهِ أَبَامًا كَثِيرَةً حَتَّى بَلَغْتُ ذَلِكَ الْبَلَدَ.
وَكُنْتُ - حِينَئِذٍ - فِي صُحْبَةِ أُمِّي وَبَنِيهِمْ أَهْلِي، وَظَلِمْتُ رَدَحًا (مُدَّةً)
مِنَ الزَّمَنِ أَعْمَلُ مُعَامَلَةً حَسَنَةً.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ الْبَلَدُ يَجْمَعُ بَيْنَ الدَّفءِ وَالْجَفَافِ. فَشَرَمْتُ بِأَنَّهُ
يُؤَافِقُنِي أَنَّمَا مُوَافَقَةٌ. وَسُرْعَانِ مَا صَحَّ جِئْنِي وَنَمَا.

وَكُنْتُ أَمْعَمُ النَّاسِ يَتَدَحُّونَ تَحَالُ مَنَظَرِي وَالنَّسِجَامَ جِئْنِي (اِثْثَانَةً
وَأَسْتَوَاءَهُ)، وَيَقُولُونَ مُنْجِبِينَ: «يَا لَهُ مِنْ حِمَارٍ!»

وَهُنَا أُطْرُقُ «أَبُو زَيْدٍ» دَقِيقَةً أَوْ دَقِيقَتَيْنِ، كَأَنَّمَا عَرِقَ فِي ذِكْرَاتِ
تِلْكَ الْأَيَّامِ النَّابِرَةِ (الْقَدِيمَةِ الْعَاصِيَةِ).

وَكُنْتُ - حِينَئِذٍ - أَخْتَلِسُ (أَخْطِيفُ بِسُرْعَةٍ عَلَى غَفْلَةٍ) بَعْضَ
النَّظَرَاتِ السَّرِيعَةِ إِلَى جِئْنِيهِ النَّجِيفِ، وَشَعْرِهِ الْأَشْتَتِ (الْمُفَرَّقِ)، وَأَنَا
أَقُولُ لِنَفْسِي مُنْجِبَةً: «تَرَى آيْنَ ذَهَبَ جَمَالِهِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَلَأَيَّ
لَا أَرَى لَهُ أَيْ أَمْرٍ عَلَى التَّحْقِيقِ؟»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «أَبُو زَيْدٍ» قَائِلًا: «مَا أَجِدُنِي أَنْ أَمُرَّ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ مَرًّا
سَرِيعًا، فَقَدْ كَانَتْ مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ جِدًّا، وَقَدْ رَكِدَتْ أَنْسَاها، وَقَلِمَا ذَكَرْتُهَا.

قُلْتُ لَكَ: إِنِّي نَمَوْتُ (ازْدَادَ حَجْمُ جِئْنِي) بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ، وَأَصْبَحْتُ
وَاحِدًا مِنْ أَطْوَلِ أَبْنَاءِ أُسْرَتِي وَأَقْوَامِهَا. وَكَانَ سَاحِبِي رَجُلًا رَحِيمًا، فَأَحْسَنَ
تَغْذِيَّتِي، كَمَا أَحْسَنَ مُعَامَلَتِي. وَلَقِيتُ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَعَطْفِهِ مَا لَا مَرِيدَ عَلَيْهِ.
فَكَانَ يَنْشُطُ شَعْرِي (يُسْرِعُهُ) وَيُخَلِّصُ بَعْضَهُ مِنْ بَعْضٍ (بِمَضٍ) حَتَّى
أَصْبَحَ - لِمَرَطَةٍ قُطَافَتِهِ - لَا مِمَّا، كَمَا يَلْمَعُ شَعْرُكَ الْجَبِيلِ!

فَلَا تَمْجِي إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنِّي - حِينَئِذٍ - شَمَخْتُ بِرَأْيِي مَرَهُوًّا
مُنْجِبًا بِهَذَا الثَّنَاءِ الَّذِي سَمِعْتُ، وَأَيَقُنْتُ أَنِّي أَصْبَحْتُ أُعْرِفُ حِمَارَ فِي الدُّنْيَا
كُلِّهَا، وَأَنِّي جَدِيرٌ بِالتَّسَابُّحِ إِلَى أَيْدِي الْعَظِيمِ: شَحَاجِ الْأَكْبَرِ.

٣ - حُزْنُ الْأُمِّ

قُلْتُ لَهُ: «ذَلِكَ مَقُولٌ، فَأَتَدْرِمُ حَدِيثَكَ.» فَقَالَ، وَقَدْ سَيَّ وَجْهَهُ
(فَبَحَّ) وَعَلَا الْكِتَابُ سَخَنَتُهُ، فَطَرَّ إِلَى بَوَاجِئِهِ مُنْجِبًا (عَابِسٌ مُتَغَيِّرٌ):
«أَرْجُوا أَلَا تُحَاطِبُنِي، كَمَا أَرْجُوا أَلَا تَسْجَلِبُنِي، لِأَنِّي أَعْرِفُ مَا يُقَالُ
وَمَا لَا يُقَالُ.»

دَعَيْنِي أَقْبَسُ عَلَيْكَ حَدِيثِي - كَمَا يَحْكُمُونِي بِأَسْلُوبِ الْعَاصِ - وَإِلَّا
كَفَفْتُ (سَكَتْتُ) عَنِ الْكَلَامِ بِنَانًا.

قُلْتُ لَهُ : « الْحَقُّ مَا تَقُولُ ، فَلَنْ أَطِيعَكَ مَرَّةً أُخْرَى ! »

فَقَالَ : « لَمَّا أَوْفَتْ (أَشْرَفَتْ) سِنِّي عَلَى الثَّانِيَةِ ، بَاعَنِي صَاحِبِي . وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبِي أَمْنِي حُزْنًا وَرُغْبًا لِإِفْرَاقِي ، وَقَالَتْ : « مَا أَنْتَ حَظِّي ، فَإِنِّي مَكْتُوبَةٌ هَكَذَا دَائِمًا . أَوْ كَلَّمَا نَمَا (كَبُرَ) طِفْلٌ مِنْ أَهْلِي ، أَخَذَهُ مِنِّي صَاحِبِي فَشَرَّهُ (كَرَّمَهُ وَافْتَعَبَاهُ) ، وَأَتْبَعَهُ عَنِّي ، فَلَا كَاذَ أَظْفَرُ مِنْ أَوْلَادِي إِلَّا بِمُخَبَّرَةٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَهَطَ . »

٤ - المصاحب الجديد

ثُمَّ أَخَذَنِي صَاحِبِي الْجَدِيدُ ، إِلَى مَرْتَفَعَاتٍ مِنَ التَّلُولِ وَالْهَضَابِ الْعَالِيَةِ وَتُنْحَضَاتٍ مِنَ السُّهُولِ - وَالْأَوْدِيَةِ وَالْوِغَادِ (وَهِيَ : الْأَرْضُ الْمُتَخَفِّضَةُ) حَيْثُ رَأَيْتُ أَقْدَامِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَثَبَّتَ فِي الْأَرْضِ . وَمَا أَظُنُّ أَنَّ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَنْشِيَ فِي تِلْكَ التَّسَالِكِ الْخَطِيرَ الَّتِي كُنْتُ أَرَاهَا (أَسِيرُ فِيهَا) بَيْتَةً وَذَهَابًا .

فَقَالَتْ « حَسَنَةٌ » : « ذَلِكَ مَا لَمْ أَحُلُوهُ قَطُّ ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ إِذَنْ أَنْ أَغْرِفَ : أَيْ مَقْدُورِي هَذَا لَمْ يَفْرِغْ مَقْدُورِي ! وَلَكِنْ لَا رَيْبَ أَنَّكَ

عَلَى حَقٍّ ، فَإِنِّي قَبِيلَةُ الْجَنْسِمْ ، وَأَرْجُلِي لَيْسَتْ رَشِيقَةً (لَيْسَتْ خَفِيفَةً الْحَرَكَةِ) كَأَرْجُلِكَ . فَبِعِي لِذَلِكَ لَا تَمْلُحُ لِلسَّيْرِ فِي الْأَمَاكِنِ الْوُغَرَةِ (الْمُصَنَّبَةِ) . »

فَاسْتَأْنَفْتُ « أَبُو زِيَادٍ » قَائِلًا : « ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ . فَلَيْسَ فِي مَقْدُورٍ أَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يُبَارِسَهُ (يُبَالِغَهُ) وَيَجْرِبَهُ وَيَتَرَفَّ مَدَى (مِقْدَارَ) قُدْرَتِهِ - أَوْ عَجْزِهِ - عَنْ مَرَاتِلِهِ (عَمَلِهِ) وَالْقِيَامِ بِهِ . »

٥ - في أعلى الشلال

لَقَدْ كُنْتُ - أَنَا نَفْسِي - أَحْسَبُنِي عَاجِزًا عَنْ صُعُودِ الشَّلَالِ وَسَلَّالِهِ الْجِبَالِ ، حِينَ رَأَيْتُهَا أَوَّلَ وَهْلَةٍ (أَوَّلَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ) فَقَدْ خَيَّلَ إِلَيَّ - حِينَ لَمْ أَرِ فِيهَا إِلَّا مَنَافِذَ السَّيْرِ مُنْعَدَّةً مُنْتَوِيَةً - أَنَّنِي غَيْرُ مُسْتَطِيعِ الصُّعُودِ إِلَيْهَا . وَشَرَحْتُ - حِينَ هَمَمْتُ بِإِزْهَاتِهَا (الصُّعُودِ فِيهَا) - أَنَّنِي لَنْ أَتَيْتُ أَنْ أَقَعَ عَلَى ظَهْرِي .

وَلَكِنِّي - حِينَ دَفَعْتُ رَأْيِي وَذِرَاعِي إِلَى الْأَمَامِ قُدُمًا (بِلَا انْتِهَالٍ) ،

وَبَنَتْ أَقْدَامِي فِي الصَّخْرِ تَنْبِيْثًا - تَمَكَّنْتُ مِنَ السَّيْرِ نَاجِيًا (خَالِصًا مِنْ
الْأَذَى). وَكُنَيْتُ لِي السَّلَامَةَ بَعْدَ ذَلِكَ .

٦ - بداية الشفاء

قُلْتُ لَهُ ، وَأَنَا أَرَى لِحَالِي (أَرْقُ وَأَعِطِفُ) : « تَمَكَّنْتَ ابْتَهَجْتَ حِينَ
بَلَنْتُ غَايَتَكَ ، وَوَسَلْتَ إِلَى الْقِنَةِ (بَلَنْتُ رَأْسَ الْجَبَلِ) . »
فَقَالَ : « لَقَدْ حُيِّلَ إِلَيَّ أَنْ آلِئِي قَدِ انْتَهَيْتُ . وَلَكِنْ ، وَالْإِسْفَاءُ ،
فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ بَدَايَةَ الْآلَامِ لَا نِهَآئَهَا . وَمَلِيحِي أَنْ لَمْ أَغْرِفْ هَذِهِ
الْحَقَائِقَ - حِينَئِذٍ - وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فِي هَذَا الْجَزءِ مِنَ الْجِبَالِ جَمَاعَةً مِنَ
الْمُعْدِرِيْنَ (الْمُشْتَتَلِينَ بِاسْتِخْرَاجِ الْمُعْدِنِ) يَمْتَلِكُونَ فِي مَنَاجِمِ (وَالْمَنَاجِمُ
الْمَوْضِعُ الَّذِي تُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الْمَعَادِنُ) . وَرَأَيْتُ الْفَطْعَ الَّذِي تَخْرُجُ مِنَ
الْمَنَاجِمِ تُحْمَلُ عَلَى ظُهُورِ أَفْرَادٍ مِنْ أَهْلِ بَنِي إِسْرَافِيلَ الْعِمَارِيَّةِ ، إِلَى السُّهُولِ الْمُتَنَسِّطَةِ
الرَّوَاطِئَةِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ . وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ سَهْلًا - إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ -
عَلَى أَهْلِ عَشِيرَتِي مِنَ الْخَمِيرِ الْمُدْرِيْنَ الَّذِينَ أَكْسَبَهُمُ الْقَتْلُ مَرَاتَةً
(تَمَرِينًا) وَخَيْرَةً .

أَمَّا أَنَا فَكَدْتُ أَبْلُغَ حَافَةَ الْمُتَحَدَّرِ (جَارِبَةً وَمَلَرَفَةً) - وَعَلَى ظَهْرِي
أَوَّلَ حِفْلٍ - حَتَّى رَجَعْتُ أَذْرَاجِي مُرْتَاعًا (عُذْتُ - مِنْ حَيْثُ أُتَيْتُ -
خَافًا) مُفْرَعًا .

٧ - ضربة النعاس

وَالآنَ صَوَّرِي لِنَفْسِكَ - يَا « أُمَّ سَوَادَةَ » - أَنَّنِي كُنْتُ أَنَبِي (أُمْلَبُ)
النَّعَاسَ قَدُمًا (إِلَى الْأَمَامِ) وَلَمْ أُرِدْ إِلَّا أَنْ أَتَرَوَى (أَتَفَكَّرَ) لَحْظَةً ،
رَبِّمَا أَتَبَيَّنَ طَرِيقِي .
وَلَكِنْ التَّامِلُ الَّذِي كَانَ يَسُوقُنِي حِينَئِذٍ قَالَ : « إِنِّي دَائِمٌ غَنِيْدَةٌ . » وَقَدْ
أَهْوَى (تَزَلَّ) عَلَى ظَهْرِي بِضَرْبَةٍ مُوجِعَةٍ مِنْ عَصَاؤِ .
وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَلَسَّسَ النَّعَاسُ جَسَدِي (جَسَمِي) . وَقَبْلَ أَنْ
أُوَاصِلَ سَيْرِي ، حَاوَلْتُ أَنْ أَتَفَكَّرَ فِيهَا حَدَثًا ، وَأَتَعَرَّفَ أَسْبَابَهُ . فَمَا زِلْتُ
(لَمْ يَفْرُغْنِي) إِلَّا عَصَاؤَهُ ، وَهِيَ تَزَلُّعُ مَرَّةٍ أُخْرَى ، ثُمَّ تَهْوَى (تَسْقُطُ) عَلَى
ظَهْرِي مَرَاتٍ مُتَتَابِلَةً (مُتَابِعَةً) . وَلَمْ أَكُنْ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَذْرَى كَيْفَ
كَانَتْ تَنْتَهِي النَّيْجَةُ ، لَوْلَا أَنَّ صَدِيقِي « أَبَا عَيْزَةَ » دَانَانِي (قَرَّبَ مِنِّي) ،

نُفْسُ أَسْرٍ إِلَى فِي أَدْنَى هَابِسًا (متحدِّثًا يَمُوتُ خَفِيًّا) : « هَلُمَّ فَتَحَرَّكْ »
 - يَا أَبَا زَيْدٍ - هَذَا هُوَ مَا يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنْكَ أَنْ تَفْعَلَ .
 وكان « أَبُو عُبَيْدَةَ » مِنْ رِفَاقِ النَّجْرِيِّينَ بِأَخْلَاقِ سَادَتِنَا الْأَنْبِيَاءِ
 (النَّاسِ) ، فَلَمْ أَخَافْ لَهُ نَعْمًا . وَتَشَبَّهْتُ فِي حَذَرٍ شَدِيدٍ ، وَأَنَا أَمْتَحَسُّ
 الْأَرْضَ بِأَقْدَامِي ، وَتَشَبَّهْتُ حَوَافِرِي بِهَا ، وَقَدْ صَنَعْتُ جِسْمِي ، وَخَتَيْتُ
 ظَهْرِي ، حَتَّى كَأَنِّي بِلَتَمِصِّ بِالْأَرْضِ مِنْ شِدْوِ الْخَوْفِ . وَلَمْ أَتَيْتُ أَنْ بَلُغْتُ
 - فِي الثَّيَابَةِ - سَفْحَ الْجَبَلِ سَالِمًا .

٨ - غَبَاؤَةُ النَّاسِ

وَكُنْتُ - فِي أَثْنَاءِ سِتْرِي - دَائِمَ التَّفَكُّيرِ ، وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي :
 « لِمَا ضَرَبَنِي الرَّجُلُ ؟ إِنِّي لَمْ أَزْكِبْ خَطَأً قَطُّ . » وَلَمَّا أُنْزِلَتْ الْأَحْمَالُ
 مِنْ فَوْقِ ظَهْرِنَا ، سَأَلْتُ رَفِيقِي مُتَعَجِّبًا : « خَبِّرْنِي - يَا أَبَا عُبَيْدَةَ - مَاذَا
 تَقَمُّ الرَّجُلُ (مَاذَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ) مِنِّي ، فَأَهْوَى عَلَى جِسْمِي بِمِصَاةِ النَّبْلِطَةِ ؟ »
 فَأَجَابَنِي : « الْأَمْرُ بَيْنِي (وَابْنِي) - يَا أَبَا زَيْدٍ - فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ حَسِبَ
 (ظَنَّنَا) - حِينَ تَوَقَّعْتُ - أَنَّكَ تُصِرُّ عَلَى الْوُقُوفِ ، وَأَنَّكَ حَرَنْتَ فَلَنْ

تَسِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَأَصَرَ عَلَى أَنْ يُرْتَمَكَ عَلَى السَّيْرِ . وَكَلِمَةُ لَوْ عَرَفَ السَّبَبَ
 الَّتِي دَعَاكَ لِلرَّيْثِ (الْإِنْبَاءِ) ، لَكَانَ أَرْأَفَ بِكَ (أَكْثَرَ رَحْمَةً) ، وَأَعْظَمَ
 شَفَقَةً عَلَيْكَ .

ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ النَّاسَ - يَا أَبَا زَيْدٍ - لَمْ يَتَلَوَّمُوا مِنَ الثَّقَلِ وَالْفَقْهِمْ تِلْكَ
 الْمُرْتَبَةَ الَّتِي يَتَحَلَّوْنَهَا ، وَيَرْغُمُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ . إِنَّهُمْ - لِيَعَصِرَ عُقُولَهُمْ ،
 وَمَنْعَبِ إِذْرَاكِهِمْ - يَتَهَمُّونَنَا بِالْبَلَاهَةِ وَالنَّبَاوَةِ ، وَإِنْ كَانُوا مُنْ أَنْفُسِهِمْ
 بِصِلُونَ - أَحْيَانًا - فِي هَاتَيْنِ الْمَقَتَّتَيْنِ إِلَى أَبَدٍ مِمَّا بَلَّغْنَا . »

٩ - هَمٌّ خَاطِلِي

ذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ رَفِيقِي « أَبُو عُبَيْدَةَ » ، وَهُوَ عَلَى صَوَابٍ فَيَا ذَهَبَ
 إِلَيْهِ . وَلَا أَكْتُمُكَ - يَا عَزِيزَتِي « قِسَاةُ » - أَنْ هَذَا الرَّجُلُ - لِسُوهِ
 الْحِفْظِ - قَدْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِي ، فَتَحَامَلَ عَلَيَّ (اسْتَدَّ وَعَفَتْ) بَعْدَ هَذَا
 الْحَادِثِ الْمَشْتُومِ .

لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِي (قَلْبِي) أَنَّي حَرْمُونٍ (حَاسِي لَا أَتَّأَذُّ) ، عِنْدِي فَلَمْ
 يَنْسَ لِي ذَلِكَ الْمَوْفِيقَ أَبَدًا .

وَكُنْتُ - مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ - لَا أَكْادُ أَتِي لَخُطَّةٍ ، لِأَتَنْفَسَ أَوْ أَتَمَلَّكَ
مِنْ حَيْثُ قَلِيلًا ، حَتَّى يَنْهَالَ عَلَى ضَرْبَا مَبْرَحًا (مَوْذِيًا) ، يَكُلُّ مَا أُوْتِيَ
مِنْ قُوْفٍ .

١٠ - جُعْدٌ غَيْرُ مُشْكُورٍ

وَلَقَدْ بَذَلْتُ بِسْكَافِي ، وَلَمْ أَذْخِرْ وَسْمًا فِي إِضَاءَةِ صَاحِبِي ، وَتَحْقِيقِ
رَغْبَاتِهِ . فَأَنْطَلَقْتُ أَمْشِي فِي الْمُنْتَحِدَاتِ وَالْمُنْتَرِجَاتِ الْعَبِيقَةِ ، بِخُطَى ثَابِتَةٍ ،
قَائِمًا بِالثَّاقِبِ (الْحَقِيرِ) مِنَ الزَّادِ ، رَاضِيًا بِالْأَقْلَى الْأَخْسَرُ مِنَ الطَّعَامِ . حَتَّى
لَوِذْتُ (تَمَيَّيْتُ) لَوْ قَدَرْتُ عَلَى الْخِيَاوِ - بَصِيرِ زَادٍ - مَا دَامَ يَحْمِلُ لِي أَنْ
أَمُوتَ جَوْعًا . وَكُنْتُ أَحْمِلُهُ مُشْرِعًا فِي السُّهُولِ ، وَأَعْدُو (أَجْرِي) بِهِ فِي
أَنْهَاءِ عَرْدَتِهِ . وَلَكِنْ هَذَا كُلُّهُ لَمْ يَحْدِ نَفْعًا . فَقَدِ اسْتَقَرَّ فِي خَلْدِهِ (بِالرَّ) ،
وَتَبَّتْ فِي نَفْسِهِ : أَنَّنِي حَرُونُ عَيْدٍ ، وَأَنْنِي إِنَّمَا أَسْرِعُ فِي التَّجْرِى ، خَوْفًا
مِنْ عَصَاهُ ، لَا تَلِيَّةَ لَهُوَاهُ ، وَاسْتَجْلَبًا لِجَنَابِهِ وَتَوَخُّيًا (اخْتِيَارًا وَقَصْدًا)
لِرِئْصَاهُ . فَلَمْ يَفْنِي ذَلِكَ أَقْلَ غَنَاءٍ (لَمْ يَمُدَّ عَلَى بَاقِلٍ فَائِدَةٍ) . وَلَمْ يَتَرَدَّدْ
فِي ضَرْبِي لِأَتَقَرَّ الْأَسْبَابَ ، كُلَّمَا حَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي قَصُرْتُ . »

١١ - فِي عَمَلِ الْقَصَبِ

قُلْتُ لَهُ مُهَذَّبَةً مِنْ أَلِيهِ وَحِدَتِهِ ، مُخَفِّفَةً مِنْ غَضَبِهِ وَتَوَرُّتِهِ :
« مَسْكِينُ أَنْتَ يَا صَاحِبِي . لَقَدْ مَرَّتْ بِكَ أَوْقَاتٌ سُودٌ ، وَوَحَنٌ
(مَصَائِبُ) قَلْبِيَّةٌ . فَقَدْ لَقِيتَ - إِلَيَّ وَفَرَّقَ الْغَنَاءُ (كَثُرَتْ)
الْقَصَبِ (- سَوَاءُ الْجَزَاءِ (قُبُحِ الْمُسْكَافَاوِ) . فَكَمْ مِنَ الزَّمَنِ بَقِيَتْ
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ؟ »

فَقَالَ « أَبُو زِيَادٍ » : « سِنَوَاتٌ عِدَّةٌ - عَلَى الْحَقِيقَةِ - حَتَّى فَرَّغْتَ
مُخْتَوِيَاتِ الْمَنَاجِمِ . » قُلْتُ لَهُ : « قَدْ لَقِيتَ مِنَ الْأَحْدَاثِ (الْخَوَارِثِ)
بَعْدَ ذَلِكَ ؟ » فَقَالَ : « لَقَدْ بَاعَنِي صَاحِبِي - مَعَ جَهْمَةٍ مِنْ رِفَاقِي وَإِخْوَانِي -
لِرَبِجِلٍ آخَرَ . فَسَارَ بِنَا فِي الْوُذْيَانِ وَالسُّهُولِ ، حَتَّى بَلَّغْنَا حَلَّةً كَبِيرَةً ، حَيْثُ
وُضِعْنَا فِي عَرَبَةٍ فِطَارٍ أَقْلُنَا (حَمَلْنَا) حَتَّى بَلَّغَ بِنَا شَاطِئُ الْبَحْرِ . وَنَحْنُ حَمَلْنَا
سَفِينَةً كَبِيرَةً نَقَلْنَا إِلَى مَرَزَعَةٍ وَاسِعَةٍ يَنْبُو فِيهَا قَصَبُ الشُّكْرِ . وَلَمْ
يَكُنِ الْمَسْكُونُ بَلَدًا عَظِيمًا كَذَلِكَ الْبَلَدِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، بَلْ دَسْكَرَةٌ
(قَرْيَةٌ) مُشْرِفَةٌ عَلَى الْبَحْرِ ، مَمْلُوءَةٌ بِالْهَوْنَابِ وَالْمُرْتَمِعَاتِ .

وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّهُا - لَوْ لَمْ تَكُنْ هُكُنَا - لَمَا اخْتَجَ إِلَيْنَا أَحَدٌ .
وَاتَّقَصَرَ عَمَلُنَا عَلَى حَذْلِ عِيدَانِ الْقَعَسِ إِلَى الْقَمَامِيرِ . وَلَكِنْ الطَّرْقُ - الَّتِي
كُنَّا نَجُوسُ أَثْنَاهَا (نَسِيرُ خِلَالَهَا) - كَانَتْ شَدِيدَةً الْإِنْعِدَادِ ، حَتَّى
يَصْنَعُ عَلَى السَّائِرِينَ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَيْهَا أَفْدَانُهُمْ . وَكَانَ الرَّجُلُ
الْمُتَوَطِّئُ (الْمُتَمَلِّقُ) بِرِعَايَتِنَا (الْبَايَةِ بِنَا) ، أَحْسَنَ بِكَثِيرٍ مِنْ صَاحِبِنَا
الْأَوَّلِ . وَكَانَ عَلَى الْأَغْلَبِ - فِيمَا يُلَوِّحُ لَنَا - مَلِيبُ الْقَلْبِ ، حَسَنَ التَّمَاتِلَةِ .
وَلَكِنَّا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ مَاذَا يَحْدُثُ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ .

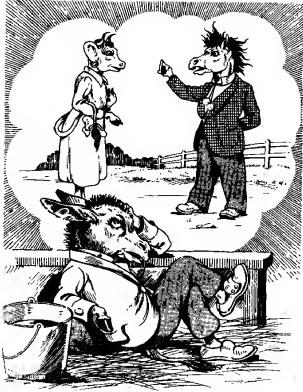
١٢ - نِهَاجُ كَرِيمٍ

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَا كُنَّا نَهْبِطُ فِي مَرِيقٍ مُنْحَدِرٍ ، يَكْدُ يُكُونُ عَمُودِيًّا ،
زَلَّتْ قَدَمُهُ ، فَهَوَى (سَقَطَ) إِلَى النَّجَاحِ ، وَتَرَدَّى فِي الْحَفِيضِ (وَفَعَّ فِي
السَّكَنِ الْوُطِيِّ وَالْحَقِيقِ) . وَلَمْ تَزَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَرَّةً أُخْرَى . فَلَا شَكَّ
عِنْدِي فِي أَنَّهُ قُتِلَ .
وَلَا تَسْأَلِي - يَا أُمُّ سَوَادَةَ - عَنْ مَبْلَغِ حُزْنِنَا عَلَيْهِ . فَقَدْ أَحْتِنَاهُ
لِنَتَفَقَّهَ وَرَحْمَتِهِ . وَالْحِمَارُ - كَمَا تَعْلَمِينَ - شَكُورٌ يُفِيرُ فِيهِ التَّمْرُوفُ .

وَلَا غَرَوْ (لَا عَجَبَ) فِي ذَلِكَ ، فَقَدْ وَرِثْنَا هَذَا الْخُلُقَ الثَّقِيلَ عَنْ جَدَّنَا
الْأَعْلَى : « شَحَاج » - مُنْذُ بَذَّ الْعَلِيقَةَ إِلَى الْيَوْمِ - وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُنَا
عِرْفَانًا بِأَجْبِيلِ . وَجِئْنَا مُتَحَابِّينَ (يُحِبُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) ، مَعْرُوفٌ بِنِقَاهِ
السَّرِيرَةِ (حُسْنِ النِّيَّةِ) ، وَطَبِيبَةُ الْقَلْبِ . لَا يَزِدُّ فِي شُكْرِ مَنْ
يُحْسِنُ إِلَيْهِ ، نَهْمًا قَلَّ مَا يُسَدِّدُهُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ (مَا يُقَدِّمُهُ لَهُ مِنْ
مَعْرُوفٍ) .

قَالَتْ « قَسَامَةٌ » : « هَكَذَا سَمِعْتُ ، يَا أَبَا زَيْدٍ ؟ فَكَيْفَ حَالُ سَيِّدِكَ
الْجَدِيدِ ؟ » فَقَالَ : « لَقَدْ كَانَ أَطِيبَ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ قَلْبًا ، وَأَصْفَاهُمْ
قَسَمًا ، وَأَوْفَرَهُمْ (أَكْثَرُهُمْ) رَحْمَةً » :

كَانَ مِنَ الرُّنُوجِ . وَكَانَ وَجْهُهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنْ جَمِيعِ رِفَافِهِ (مِنْ كُلِّ
أَصْغَارِهِ) . وَلَكِنْ أَبَايَهُ الْبَيْضُ (نِقْمَةُ الْجِسَانِ) قَدْ مَلَأَتْ قُلُوبَنَا حُبًّا لَهُ
وَعِرْفَانًا لِحَبِيلِهِ . فَقَدْ اغْتَادَ أَنْ يُفَتِّنَا وَنَحْنُ نَدْبِي الْهُوْنَى (فِي بُطْنِهِ) ،
وَعَلَيْنَا الْأَشْقَالُ وَالْأَحْمَالُ . وَكَانَتْ الرِّخْلَاتُ تَبْدُو لَنَا - عَلَى مَوَلَاهَا - أَفْصَرَ
مِنَّا هِيَ ، كَمَا كُنَّا نَشْعُرُ أَنَّ أَحْمَالَنَا التَّيْلَةَ أَخْفَ مِنْ حَقِيقَتِهَا .



الفصل الخامس

عودة أبي زياد

١ - ذكريات الإسطبل

لَقَدْ تَدَاوَلَتْنِي مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ ، كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي ، (أَخَذَتْنِي هَذِهِ
مَرَّةً ، وَهَذِهِ مَرَّةً) ، وَخَلَّتْ فِي أَمَاكِنِ عِدَّةٍ ، لَقِيتُ فِيهَا قُتُونًا (صُوفًا)
مِنَ السَّعَادَةِ ، وَشُرُوبًا مِنَ الشَّعَاءِ .

وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ عَالَمًا قَضَيْتُهُ فِي ضَيْعَةِ شَيْعَةٍ بِصَيْعَتِكُمْ هَذِهِ ، الَّتِي
لَمِيتُ فِيهَا بِلُقْيَاكِ (لَقَائِكَ) يَا أُمَّ سَوَادَةَ .

وَكَانَ يُونُسًا فِي الْإِسْطَبْلِ - حِينَئِذٍ - جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْثِيَاءِ ، لَمِيتُ
بِحُبُّهُمْ ، وَسَمِعْتُ بِإِنْسَانِهِمْ ، أَوْ يَا ابْنَةَ عَمِّ أَيْنَ مِنْ عَيْنِي ذَلِكَ الْعَهْدُ الْهَيْدُ ،
وَعَيْشَةُ الرَّغِيدِ (الْعَلِيبُ الْوَاسِعُ) .

أَيْنَ مِنْ عَيْنِي تِلْكَ الْبَقَرَةُ الْحَبِيلَةُ السَّمْرَاءُ الشَّعْرُ ، الَّتِي كُنَّا نَطْلُقُ عَلَيْهَا
لَقَبَ: الْغَنَسَاءِ .

وَأَيْنَ يَنْتَهَا : الْجُودَرَةُ : تِلْكَ الْمَجَلَّةُ الظَّرِيفَةُ ؟ أَيْنَ أُمُّ الْأَشْمَتِ :

تِلْكَ الْمَنْزِلَةُ الرَّشِيقَةُ (ذَاتُ الْقَدِّ الْحَسَنِ اللَّطِيفِ) ، الْمُرْتَفِعَةُ الْقَرْنَيْنِ ،
الطَّوِيلَةُ اللَّحْيَةِ ، الْمَوْفُورَةُ النَّشَاطِ ، الدَّائِمَةُ الْجَرَى ، الَّتِي لَا تَسْكَادُ تَسْتَعْرِ
فِي مَكَانِهَا لَحْظَةً ؟ وَأَيْنَ وَلَدُهَا : أَبُو بَجْنَرٍ : ذَلِكَ الْفَتَى الْحَبِيبُ إِلَى نَفْسِ
كُلِّ مَنْ رَأَاهُ ؟ لَقَدْ كَانَ - حَيْثُذ - فِي مُتَعَبِلِ شَبَابِهِ - وَمَا أَغْنَاهُ بِأَيًّا
- إِلَى الْيَوْمِ - عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ !

أَيْنَ أُمُّ فَرْوَةَ : تِلْكَ الثَّجَّةُ الْبَيْضَاءُ الْمَرْحَةُ (الَّتِي اشْتَدَّ فَرْحُهَا وَنَشَاطُهَا
حَتَّى جَاوَزَ الْحَدَّ) . شَدَّ مَا كَانَتْ تُزْهِى وَتُخَالُ حِينَ تُنَادِيهَا بِـ « أُمُّ فَرْوَةَ » :
تِلْكَ الْكُنْيَةُ الْحَبِيبَةُ إِلَى نَفْسِهَا . وَأَيْنَ وَلَدُهَا : الطَّلِي ؛ مَا كَانَ أَجْمَلَهُ سَمَلًا
(خَرُوفًا قِيًّا) ! وَمَا كَانَ أَغْلَزَ شَعْرَهُ الْمُجَمَّدَ (شَعْرَهُ الَّذِي فِيهِ
التَّوَلُّو وَتَقَبُّضُ) !

وَأَيْنَ أَبُو دُلْفَ : ذَلِكَ الْخُثُوصُ (الْخِزِيرُ الْعَصِيرُ) الَّذِي كَفَّتِ الْأَنْفِ
(يَعْنِي : أَنَّ أَفْئِدَةً مُتَضَامًا مُسَكَّبًا) ؟ وَأَيْنَ صَدِيقُ الْفَرَزُ ؟ « لَاحِقُ » .
لَقَدْ كَانَ - بِأُمِّ سَوَادَةَ - جَوَادًا (حِصَانًا) جَمِيلًا . أَتَمَرُ ، كَرِيمُ الطَّبْعِ .
وَقَدْ كَرِهَتْهُ بِهَتَائِلِكِ (مَلَابِكِ وَأَخْلَاقِكِ) الثَّيْلَةِ ، وَمَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِـ
مِنْ لُطْفٍ وَدَمَانَةٍ (خُلُقٍ سَهْلٍ) .

وَأَيْنَ ابْنُ وَارِجٍ : حَارِسُ الْإِسْطَبَلِ ، الْجَرَى ، الْبَقِطُ ، الَّذِي كَانَ اسْمُهُ
يَقْذِفُ الرُّغْبَ فِي قُلُوبِ الدَّثَابِ وَالْعُصُوسِ جَمِيعًا .

وَمَا أُنْسَ - مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ الْبَهِيْجَةِ الَّتِي قَسَمْتُهَا فِي ذَلِكَ الْإِسْطَبَلِ
الْفَسِيحِ - لَا أُنْسَ لَيْلَةً اسْتَيْقَظْتُ فِيهَا عَلَى دَرِينِ صَوْتِ عَالٍ ، تَبَيَّنَ لِي
- بَعْدَ قَلِيلٍ - أَنَّهُ مُنْهِمٌ مِنْ جَلَّاجِلِ أُمِّ الْأَشْمَتِ (الْعَنْزِ) ، فَمَا تَبَنَّا ،
فَاعْتَدَرَتْ عَمَّا بَدَرَ مِنْهَا . وَمَا كَادَتْ تُنْمِ اعْتِذَارَهَا حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ الْخَنَسَاءُ
(الْبَقَرَةُ) مِنْ نَوْمِهَا ، وَأَنْحَتْ عَلَيْهَا بِاللَّائِمَةِ (أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا تَلُومُهَا) .
وَأَسْتَيْقَظَ مَعَهَا أَبُو دُلْفَ (الْخِزِيرُ) ، وَالطَّلِي (الْحَمَلُ) ، وَأَبُو بَجْنَرٍ
(الْجَدِيُّ) ، وَأُمُّ فَرْوَةَ (الثَّجَّةُ) ، وَأُمُّ الْأَشْمَتِ (الْعَنْزُ) ، وَلا حَقَّ
(الْجَوَادُ) . يَا لَهَا لَيْلَةُ بَهِيْجَةٍ ، مَرَّتْ بِهَا كَمَا تَمُرُّ الْأَخْلَامُ السَّيِّدَةُ ! لَقَدْ
مُتَلَانَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ - مَسَلَةً رَائِمَةً فِي ذَلِكَ الْإِسْطَبَلِ الْفَسِيحِ .

وَدَفَعَتِ الشُّوقُ إِلَيَّ تَعْرِيفَ تِلْكَ السَّلَاةِ الَّتِي مَثَلَهَا « أَبُو زِيَادٍ »
وَأَصْحَابُهُ فِي الْإِسْطَبَلِ ، فَأَفْضَى إِلَيَّ (أَخْبَرَنِي) بِهَا فِي أَشْلُوبِ
مُنْتَعِبٍ جَذَابٍ .

وَقَدْ حَقَّرَنِي (دَفَسَنِي) فَرَطُ الْأَعْجَابِ بِنِكَ النَّسْلَةِ (الْكُومِيذِيَا)
إِلَى نَصْدِيرِ خَوَاطِرِي بِهَا (جَمَلُهَا صَدْرًا لَهَا وَفِي بَاجَةِ) ، لِنَكُونُ أَوَّلُ
مَا تَتَّعُ بِهِ أَبْهَامُ الْفَارِئِ الصُّمَيْرُ .

وَلَمَّا سَأَلْتُ «أَبَا زِيَادٍ» أَنْ يُبَيِّنَ مَا بَدَأَهُ مِنْ حَدِيثٍ ، قَالَ :
«إِنَّ تَارِيخِي - يَا أُمُّ سَوَادَةَ - مُتَشَعَّبٌ ، حَافِلٌ (مَمْلُوءٌ) بِالْكُورَاتِ
وَالْيَحَنِّ (النَّصَائِبِ وَالْخُطُوبِ) . وَحَسْبِي أَنْ أُجْتَرَى (أُكْتَبَ) مِنْهُ بِأَشَدِّهِ
أَنْزَا فِي قَسْبِي .

٢ - السُّفِينَةُ الْفَارِقَةُ

قُلْتُ لَكَ - يَا «أُمُّ سَوَادَةَ» - إِنِّي قَلْبْتُ فِي قُتُونٍ مِنَ السَّمَاءِ ،
وَضُرُوبٍ مِنَ الشَّقَاءِ . وَلَقَدْ تَرَى عَلَيَّ - بَعْدَ أَنْ مَاتَ صَاحِبُ الضَّمِيمَةِ ،
وَاتَّقَلْتُ أَمْلَاكُهُ إِلَى قَبْرِهِ - زَمَنٌ طَوِيلٌ زَاغِرٌ بِضُوءِ الْبَلَاءِ ،
وَجَالِيَاتِ الشَّقَاءِ .
وَعَلَى مَا كَابَدْتُهُ - مِنْ عَمَلٍ مُضْنٍ (مُتْرِضٍ) وَسُوءِ مُعَامَلَةٍ - سَمِعْتُ

الثَّاسَ يَتَعَتُونِي (يَصِفُونَنِي) بِالرَّشَاقَةِ (حُسْنِ الْقَدِّ وَلُطْفِهِ) ، وَالْأَنَاقَةَ
(الْجَمَالَ الْمُعْجِبَ) .

وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُؤَسِّرِينَ (الْأَغْنِيَاءِ) ، فَاشْتَرَانِي ، وَسَارَ بِي
حَتَّى بَلَدْنَا شَاطِئَ الْبَحْرِ ، حَيْثُ أَقْلَسْنِي (حَمَلَسْنِي) سَفِينَةً مَعَهُ . وَقَدْ سَمِعْتُ
السَّيِّدَ الْجَدِيدَ يَقُولُ : إِنَّ لَهُ بِنْتًا صَغِيرَةً ، وَإِنَّمَا تَرَى فِي مِثْلِي خَيْرَ أُنْثَى
وَصَاحِبٍ . وَنَمَّةٌ (هُنَا) اسْتَحَرَّتْ ، وَدَبَّ فِي قَلْبِي دَيْبُ الْأَمَلِ ، فَقَدْ
اعْتَقَدْتُ أَنَّ حَظِّي الْحَسَنَ قَدْ عَادَ إِلَيَّ . وَلَكِنْ شَدَّ مَا خَابَ عَلَيَّ ، فَقَدْ
فَرَقَتِ السُّفِينَةُ بَيْنَ فِيهَا وَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ - قَبْرِي - مِنْ رَاكِبِيهَا . وَلَقَدْ
كُنْتُ فِيهَا مِنَ الْمُرَفَّهِينَ ، لَوْلَا أَنِّي - لِخُسْنِ حَظِّي أَوْ سُوءِهِ -
قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْفَرَقِ ، وَسَلِمْتُ مِنَ الْهَلَاكِ ، بِأَعْجُوبَةٍ .

أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ سَلِمْتُ ؟ لَقَدْ فَتَحَ أَحَدُ الْعَلاَحِينَ بَابَ غُرْفَتِي مُبَيِّلًا أَنْ
يَسْلُهَا الْمَاءُ ، وَكَانَ قَدْ ارْتَفَعَ حَتَّى غَمَرَ قَوَانِي (عَلَا يَدَيَّ وَرَجُلِي) .
وَرَأَيْتُنِي - حِينَئِذٍ - أَغَالِبُ الْأَمْوَاجِ وَأَصَارِعُهَا ، صَارِبًا بِهَا يَكُلُّ قُوَّتِي .
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قَوَانِي عَلَى السَّاحِلِ ، وَلَسْتُ أَرْضُ الشَّاطِئَ فِدَاءً . وَنَمَّ رَأَيْتُ
رَجُلًا وَاقِفًا عَلَى الصَّفَةِ قَرِيبًا مِنِّي . فَأَمْسَكَ بِي مِنْ مَعْرَقَتِي (شَعْرِ عُنُقِي) ،

مُجَذَّبِي مِنَ الْمَاءِ فَأَخْرَجَنِي .

٣ - صِيَادُ السَّمَكِ

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ - كَمَا عَلِمْتُ فِي قَائِلِ أَيَّامِي - صِيَادَ سَمَكٍ شَدِيدَ
الْفَقْرِ ، فَأَخَذَنِي مَعَهُ إِلَى عَشِيرَةِ الْعَقِيرَةِ الْبَائِسَةِ . وَكَانَتْ فِرَاقَتِي الْحَيَلَةَ
لَا تَزَالُ مُتَبَلِّغَةً ، فَلَمْ يُمْنَ (لَمْ يَهْتَم) بِتَخْفِيفِهَا ، فَارْتَعَشْتُ مِنَ الْبُرْدِ . وَزَأَنِي
أُرْتَمِدُ (أُرْقِصُ) ، فَلَمْ يَأْنِهِ لِأَمْرِي ، وَلَمْ يَحْمِلْ بِمَا أَصَابَنِي .
ثُمَّ وَصَّنِي فِي زُرِّيَّةٍ قَدِيمَةِ الْبُيُوتِ ، مُتَدَاعِيَةِ الْجُدُرَانِ (مُتَهَدَمَةِ
الْجِيطَانِ) . وَكَانَتْ - عَلَى قَدَارَتِهَا - يَتَحَلَّلُهَا تَيَّارٌ مِنَ الْهَوَاءِ . وَقَدْ بَحَلَ
عَلَيَّ - إِلَى ذَلِكَ - بِحُزْمَةٍ مِنَ الْقَشِّ ، تَكُونُ لِي مِهَادًا (فِرَاشًا) ،
أُرْبِجُ نَفْسِي عَلَيْهِ ، فِي أَتْنَاءِ النَّوْمِ .

٤ - الْأُسْرَةُ الْبَائِسَةُ

يَالَهُ مِنْ عَهْدٍ طَوِيلٍ حَافِلٍ (مَمْلُوءٍ) بِمُتَوَنِّبِ الْبُؤْسِ ، وَمُتْرُوبِ الشَّقَاءِ .
فَلَا مَرَّ سَرِيحًا هَلِيمٍ السَّيْفِ الثَّاعِبِ أَلَّتِي قَضَيْتُهَا عِنْدَ الصَّبَا . فَمَا أَشْكُ فِي

أَنَّ الْمَتَاعِبَ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا حِينُنَا كَانَتْ - عَلَى كَثَرَتِهَا - قَلِيلَةً الْخَطَرِ ،
لِأَنَّهَا لَا تَجَاوِزُ قِدَادَانَ الطُّغَامِ ، أَوْ قِدَادَانَ الْمَاءِ التَّطْلِفِ ، أَوْ قِدَادَانَ
الْبِنَائَةِ بِشَطِّ شَمْرِي ، إِلَى أَشْيَاءِ ذَلِكَ مِنَ الْمُتَنَصَّاتِ الَّتِي يَهْوِيهَا الصَّبَرُ .
وَمِمَّا يَكُنُّ مِنْ أَمْرِ . فَقَدْ بَذَلَ الصِّيَادُ الْفَقِيرُ قَصَارَى جُهْدِهِ (غَايَةَ مَا فِي
وُسْعِهِ) ، وَلَمْ يَتِمَّ التَّخْفِيرُ فِي شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِي . لَقَدْ كَانَ عَائِلًا كَانَ
لَهُ أَوْلَادٌ يَمُولُهُمْ ، أَعْنَى : يَقْوَتُهُمْ وَيُغْفِقُ عَلَيْهِمْ) ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ
مُتَنَلِّةَ الْجِسْمِ ، لَا تَكْادُ تُفِيقُ مِنْ أَمْرَاضِهَا . وَلَمْ يَكُنْ حَظُّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ
الْمُسْكُودَةِ فِي الْحَيَاةِ بِأَحْسَنَ مِنْ حَقِّي الثَّاعِسِ . فَقَدْ كُنَّا جَمِيعًا أُسْرَةً مُهْتَلَةً
الْبِنَائَةِ ، لَمْ تُظْفَرْهَا الدُّنْيَا بِشَيْءٍ مِنَ الرَّعَايَةِ . وَشَمْتُ شَمْرِي (تَحَفَّرْتُ) شَيْئًا
فَتِيحًا . وَهَزَلْتُ ، وَشَرَمْتُ بِالذَّلَّةِ ، بَعْدَ أَنْ قَفَذْتُ الْعُجْبَ وَالزُّهْرَ بِحِمَالِي .
وَلِكُنِّي يَقِيتُ - بِرَغْمِ هَذَا - مُحْتَفِظًا بِقُوَّتِي . وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّا
- مَعَشَرَ الْخَمِيرِ - قَادِرُونَ عَلَى الْإِحْتِمَالِ ، مَتَرُوفُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى النِّكَالِ ،
تَحْتَمِلُ شَطْفَ الْعَيْشِ (خُسُوفَتَهُ) دُونَ أَنْ نُحْيِيَ الْمَاءَ ، أَوْ نَشْمُرَ بِفَضَائِلِهِ
(ذِلَّةٍ) .

٥ - عَابِرُ سَبِيلٍ

قُلْتُ لَهُ: «صَدَقْتَ يَا ابْنَ عَمٍّ، فَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ عَنْكُمْ. وَلَكِنْ خَبَّرَنِي كَيْفَ تَسَى (تَيْسَر) لَكَ أَنْ تُفَارِقَ هَذَا الصَّيَّادَ؟»

قَالَ: «أَبُو زِيَادٍ، مُفْكَرًا: «هَذَا مَا لَمْ أَفْهَمْهُ إِلَى الْآنَ. لَقَدْ حَمَلْتُ عَلَى ظَهْرِي مِشْنَتَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ سَمَكًا، وَذَهَبْتُ بِهِمَا إِلَى السُّوقِ. ثُمَّ وَقَفْتُ أَمَامَ الدُّكَّانِ الَّذِي دَخَلَهُ صَاحِبِي. وَإِنِّي لَوَاقِفٌ، إِذَا يَرَجُلُ عَابِرُ سَبِيلٍ قَدْ وَقَفَ وَنَظَرَ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ مُتَمَجِّبًا:

«وَيْ! مَا أَجْتَلَهُ حِمَارًا، لَوْ زُرِقَ خَطَا مِنَ الْبَنَاتِ، وَلَقِيَ نَعِيمًا مِنَ الرِّعَايَةِ. أَمَا إِنَّهُ لَوْ ظَفَرَ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ نَظَافَةٍ وَطَمَامٍ، لَبَدُّ (فَاقَ) «سُكْنًا» ذَلِكَ الْحِمَارَ الَّذِي لَا يَكْفُفُ مُعَذَّةً اقْرَبِيَّةً عَنِ الثَّبَاهَةِ بِهِ، وَبِرَغْمِ أَنْ أَصْلَهُ مِنْ بَنَاتِ صَعْدَةٍ (مِنْ نَسْلِ حُمُرِ الْوَحْشِ)، لَا مِنْ بَنَاتِ شَحَاحٍ: جَدْنَا الْأَعْلَى الْقَدِيمِ. وَلَقَدْ كَادَ الْجُوعُ وَالْإِهْمَالُ يَقْتُلَانِي وَيُسْجِرَانِي عَنِ التَّمَلُّ، وَيَسْلُبَانِي الرِّشَاقَةَ وَالنَّشَاطَ.

أَلَا لَيْتَ صَاحِبَةَ يَدَيْهِ فَأَشْتَرِيَهُ مِنْهُ بِأَيِّ فَمَنْ شَاءَ.»

٦ - عِنْدَ سَقَطِي

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ خَرَجَ الصَّيَّادُ مِنَ الدُّكَّانِ. وَبَعْدَ أَنْ حَادَثَ ذَلِكَ الْغَرِيبَ، رَفَعَ الْيَشْتِنَيْنِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِي، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى حَيْثُ لَا أَدْرِي. وَأَصْبَحَ ذَلِكَ الْغَرِيبُ سَبْدًا لِي مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ. وَقَدْ اتَّفَعْتُ لِي - فَيَا بَعْدَ - إِنَّهُ كَانَ سَقَطِيًّا.

قُلْتُ لَهُ مُتَمَجِّبَةً: «وَمَا هُوَ السَّقَطِيُّ، فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ يَا أَبَا زِيَادٍ؟»
قَالَ: «إِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَجْرُ فِي سَقَطِ الْمَتَاعِ (رَدَى الْأَشْيَاءَ). وَقَدْ تَمَوَّدَ السَّقَطِيُّ أَنْ يَمُرَّ بِي عَلَى أَبْوَابِ الْمَنَازِلِ. وَكَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْيَانِ، يَجْرُ فِي الْخُضَرِ لِيَتِمَّهَا فِي الْمَدِينِ. وَقَدْ أَلِفْتُ جَرَّ مَرَكَبِيهِ، وَاسْتَبْرَأَ عَلَى قَوَائِمِ طُولِ النَّهَارِ. وَارْتَمَحْتُ نَفْسِي لِتَجَارَفِ الْخُضَرِ. فَقَدْ كُنْتُ أَجْرُ مَرَكَبَةٍ صَغِيرَةٍ كُلِّ صَبَاحٍ، وَأُسَوِّفُهَا فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ أَقْفِي مَعَهُ أَكْثَرَ الْيَوْمِ، بَلْ كُلَّهُ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ. فَكَانَ طَلَابِي مَوْفُورًا (كَثِيرًا)، وَالْخُضَرُ مِنْ أَشْغَى الزَّوَادِ لَدَيَّ بِالطَّلَبِ. فَسَمَنْتُ، وَحَسَنْتُ مِصْحِي، وَاسْتَرْذَدْتُ (اسْتَرْجَمْتُ) قُوَّتِي مِنْ جَدِيدٍ. وَلَكِنْ جَلَدِي لَمْ يَطْفُرْ بِمَا يَطْلُبُهُ مِنْ

الْمَسْطَرِ وَالْتَنْظِيفِ قَطْرًا. وَلَمَّا كَانَ تَدَعَيْنِ إِذَا أَخْبَرْتُكَ أَنِّي لَقِيتُ بَعْدَ ذَلِكَ
- مِنْ قُتُونِ الْإِهْمَالِ - مَا لَمْ يَكُنْ لِي يَخْطُرُ لِي عَلَى الْبَالِ. أَنُصَدِّقِينَ أَنِّي لَمْ
أَكُنْ أَظْفَرُ بِالْأَحْمَرِ طَوْلَ اللَّيْلِ؟ وَأَنْ مَا كُنْتُ أَقْلَاهُ مِنَ الضَّرْبِ - فِي أَثْنَاءِ
النَّهَارِ - قَدْ حَرَمَنِي نَوْمِي، وَأَقْصَى مَضْجِي لَيْلًا (جَعَلَهُ خَشِينًا، وَالْمَضْجُجُ
الْمَحَلُّ الَّذِي يَضَعُ جَنْبَهُ بِهِ). فَلَمْ تَطْعَمْ جَفْنَايَ غَمَضًا (لَمْ تَذُقْ
عَيْنَايَ نَوْمًا).

فَقُلْتُ لَهُ فِي مُدْوَاهُ: «لَمَّا مَتَاعَيْكَ قَدْ أَثْلَفْتَ صِحَّتَكَ، وَصَيَّرْتَكَ
مَقْلُوبًا عَلَى أَعْصَابِكَ، وَحَبَّبْتَ إِلَيْكَ الْعِنَادَ. فَأَصْبَحْتَ حَرُورًا شَيْئًا؟»

٧ - قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ

فَأَجَابَنِي فِي لَهَجَةِ الْيَائِسِ الْحَزِينِ: «لَمَّا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ صَحِيحٌ. عَلَى أَنْ
الضَّرْبَ لَمْ يَبْدُ يُجْدِي نَفْسًا». فَقُلْتُ لَهُ: «كَمْ مِنَ الزَّمَنِ قَضَيْتَ مَعَ
هَذَا السَّقَطِيِّ؟» فَقَالَ: «لَا زَمَنُهُ إِلَّا مَا قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مَهْنَتًا أَوْ قَدْ لَقِيتُ
مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِ، مَا يَنْصَحُ إِلَى الْحَيَاةِ. فَلَمْ أَعُدْ أَخْطِلُ بِالنِّقَاهِ، وَأَصْبَحْتُ
لَا أُبَالِي حَيَاتِي وَتَمَاتِي، فَهِيَ عِنْدِي سَوَاءٌ. فَلَا تَنْجِبِي إِذَا أَخْبَرْتُكَ أَنِّي زَهَيْتُ

فِي الطَّعَامِ، وَقُلْ أَكَلِي شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى هَزَلَ جِسْمِي، وَافْتَلَتْ صِحَّتِي. وَمَا
زِلْتُ أَرْتَكِسُ (كُلَّمَا نَجَّوْتُ مِنْ عِلَّةٍ، رَجَعْتُ إِلَيْهَا)، وَيَشْتَدُّ بِي صَنْعِي،
حَتَّى عَجَزْتُ عَنْ جَرِّ التَّرَكْبَةِ. وَأَصْبَحْتُ أَنَا بِمَا أَعْمَلُهُ مِنْ أَثْقَالٍ
(لَا أَقُومُ بِهَا إِلَّا بِجَهْدٍ مُتَبَا مُتَقَلِّلاً).

٨ - عَجَزُ الشَّيْخُوخَةِ

فَقُلْتُ لَهُ: «تُمْ مَاذَا حَدَّثْتَ؟» فَقَالَ: «لَقَدْ صَجِرَ (صَاقَ) بِي
صَاحِبِي كَمَا صَجِرْتُ بِهِ، وَمَلَّنِي كَمَا مَلَّنَهُ. فَقَالَ لِي - ذَاتَ يَوْمٍ - عَابَسًا:
«لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَخْطِلُ بِقَوَاكِ عِنْدِي بَعْدَ الْيَوْمِ. فَإِنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ
الْعَمَلِ. فَأَجِبْنِي إِلَى عَاجِزٍ مِثْلِكَ؟ خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَجُولَ فِي مَنَازِلِ
الْأَرْضِ (تَتَشَوَّى فِي تَوَاجِيهِهَا)، تَلْمِزَ تَهْتَدِي بِنَفْسِكَ إِلَى نَيْتِ مُوسِرٍ
(عَنِّي) كَرِيمٍ: يُؤْوِيكَ، وَيُطْعِمُكَ، دُونَ أَنْ تُؤَدِّيَ لَهُ عَمَلًا.»
تُمْ تَرَكْنِي فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ.

٩ - في مُتَصَفِّ الشَّاه

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ حَدَّثَنِي : أَنْ صَاحِبَكَ قَدْ أَغْرَجَكَ مِنْ
يَتِيهِ ، مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، أَغْنَى : أَنَّهُ طَرَدَكَ فِي مُتَصَفِّ فَضْلِ الشَّاه .
فَكَيْفَ صَنَعْتَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ؟ » فَقَالَ : « دَعَمْتُ أَرْثَادُ
(أَطْلُبُ) الْأَمَاكِنَ الْخُلُويَّةَ ، وَأَنْتَقِلُ مِنْ مَحَلَّةٍ إِلَى أُخْرَى . وَلَمْ
يَكُنْ بِي قُدْرَةٌ عَلَى أَكْلِ مَا حَشَنَ مِنَ الطَّعَامِ ، بِمَا كُنْتُ أَفْعُ بِهِ
فِي أَيَّامِ شَبَابِي . فَقَدْ صَنَعْتُ أَسْنَانِي عَنْ الْقَضَمِ (تَكْسِيرِ الْيَاسِرِ مِنْ
الطَّعَامِ) ، فَلَمْ تَمُدَّ قُوَّتِي عَلَى طَعْنِ مَا آكَلُهُ ، كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ .
وَأَبْنَعْتُ النَّاسَ ، وَعَاقَبْتُهُمْ نَفْسِي (كَرِهْتُهُمْ) ، فَأَنْزَلْتُ (اخْتَوَزْتُ) الْبُيُودَ
عَنْهُمْ ، بِمَدَامَا لَقِيتُ مِنْ قُتُونِ الْأَذْيَةِ وَنِشَانِ الْخُفُوقِ ، وَضُرُوبِ
الْمُفُوقِ (مُتُوفِ الْعِصْيَانِ ، وَالْإِسْتِخْفَافِ ، وَتَرْكِ الشُّفَعَةِ) .

١٠ - غَايَةُ الْأَلَامِ

قُلْتُ لَهُ : « لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ أَشْرَارًا كَمَا تَطُنُّ . وَسَتَرَى فِي هَذِهِ

الْمُسْكِرَةِ (الْمُنِيعَةِ) ، أَفْصَى مَا تَصْبُرُ (غَايَةُ مَا تَمِيلُ) إِلَيْهِ تَهْشِكُ مِنْ
أَلْوَانِ التَّكْرِيمِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ .

كُنْ عَلَى يَقَّةٍ - يَا أَبَا زِيَادٍ - أَنَّكَ لَنْ تُضْرَبَ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَلَنْ تُلْقَى
إِلَّا خَيْرًا . فَإِنَّ جَمِيعَ الدَّوَابِّ الَّتِي تَقَطُنُ (تَسْكُرُ) فِي هَذِهِ الضَّيْعَةِ
(الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تُنْبِتُ الثَّلَاثِ) تُعَامَلُ أَحْسَنَ مُعَامَلَةٍ . فَهَوْنٌ عَلَيْكَ
فَلَنْ تُلْقَى مَعَنَا إِلَّا مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسُكَ ، وَبِرِزْقٍ لَهُ خَاطِرُكَ (قَلْبُكَ) .
فَقَالَ « أَبُو زِيَادٍ » وَالشُّكُّ يُسَاوِرُهُ (يُضَالِيهِ) : « أَتُظَنُّ أَنَّ سَيَسْمَحُ
بِي بِإِتْقَانِهِ إِلَى جِوَارِكُمْ مَعَ مَا تَرَيْنَ مِنْ عَجْزِي عَنْ أَدَاءِ أَمْرِ عَدْلٍ ؟ »

١١ - الْفَرَسُ الْمَجُورُ

فَأَجَبْتُهُ : « نَعَمْ ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الضَّيْعَةِ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ
يَتْرُكَكَ نَهْبَ الْبُجُوعِ وَالْبَرِيدِ (قَرِيبَةً لِهَئِمَا) ، وَلَنْ يُثْلِكَ إِلَى
الرَّدَى (الْمَوْتِ) إِلَّا حَتْفَ أَفْكٍ (مَوْتًا طَبِيعِيًّا) ، مَرَّةً حَانَ
حَيَاتُكَ (مَتَى جَاءَ أَحْلَاكَ) .

كُنْ وَاهِمًا بِمَا أَقُولُ . فَإِنَّ فِي دَسْكَرَاتِنَا (صَيِّغَتِنَا) هَذِهِ فَرَسًا عَمُورًا ،

اسْمُهَا «سَلَى»، فَذَ أُعْجِرَتْهَا الشَّيْخُوخَةُ عَنِ الْقَمَلِ، بَعْدَ أَنْ
بَلَغَتْ أَزْدَلَ الْمُنَرِّ، وَنَاهَزَتْ سَيْهَا السَّادِسَةَ وَالْبَشِيرِينَ. وَهِيَ سَعِيدَةٌ
بِالْكُونِ مَتْنًا، وَابْتِغَاءً إِلَى جَانِبِنَا؛ وَقَدْ هَامَ الْأَطْفَالُ بِحُبِّهَا، وَأَلْفُوا
(نَمُودُوا) رُكُوبَهَا كُلَّمَا أَلَحَّتْ لَهُمُ الْفَرَسُ لِقَائِهَا. وَهِيَ أَلِفَةٌ وَادِعَةٌ
(سَاكِتَةٌ هَادِئَةٌ) لَا تُؤْذِي أَحَدًا مِنْهُمْ، بَلْ تُبَادِلُهُمُ الْمَحَبَّةَ، وَتُصَفِّهِمُ
الْوِدَادَ (تُخْلِصُ فِي حُبِّهِمْ).

فَهْضِلُ السَّائِرِينَ

فِصَّةُ أَبِي تَوَلَّيْ

١ - حَدِيثُ دَعْمَانَ

فَارْتَاخَتْ نَفْسُ «أَبِي زَيْادٍ» لِإِسْمَاعِيلَ، وَاطْمَأَنَّ بِالْهَ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ
الصَّدَقَ فِيمَا حَدَّثَتْهُ بِهِ. ثُمَّ قَالَ لِي وَقَدْ شَاعَتِ الْبُهْجَةُ فِي قَلْبِهِ، وَلَا حَتَّ
السَّعَادَةُ عَلَى مَلَامِيهِ.

«لَقَدْ وَعَدْتَنِي - يَا أُمَّ سَوَادَةَ - أَنْ تُحَدِّثَنِي بِمَا قَعَصْتُ عَلَيْكَ صَاحِبِيكَ
«دَعْمَانَ» مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِنَا «أَبِي تَوَلَّيْ». وَلَمْ تَكُنْ مُنْجِزَةً وَقَدْ كَرِ الْآنَ،
كَأَنَّ خَيْرَ الْبُرِّ عَاجِلُهُ».

فَأَنْشَأْتُ «قَسَامَةً» فَكُفْتُ عَلَى «أَبِي زَيْادٍ» أَخْبَارَ «أَبِي تَوَلَّيْ»
وَرِخْلَاتِهِ الْمُعْجِبَةِ. قَالَتْ:

٢ - نَشْأَةُ «أَبِي تَوَلَّيْ»

حَدَّثَنِي «دَعْمَانُ» عَنْ «أَبِي تَوَلَّيْ» أَنَّهُ قَالَ:

وَنَشَأَتْ - أَوَّلَ مَا نَشَأَتْ - فِي بَيْتِ «أُمِّ عَرِيذَ» وَهِيَ سَيِّدَةُ
نَصَفٍ (أَمْرَأَةٌ وَسَطُ بَيْنِ الْحَدِيثَةِ وَالْمُسِنَّةِ)، تُنَاهِزُ (تُحَارِبُ) النَّحَاسَةَ
وَالْأَذْيَمِينَ مِنْ عُمْرِهَا. وَكَانَ لَهَا حَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ، وَبَقَرَةٌ سَيِّئَةٌ نَكَّيَتْ
«أُمَّ الْوَالِيَّةِ»، وَجَمْعَةٌ مِنَ الدَّجَاجِ. وَقَدْ جَمَعَتْ بَيْنَ الزَّرَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ،
فَكَانَتْ تَسْتَخْرِجُ - مِنْ لَبَنِ بَقَرَتِهَا - الْحُبْنَ وَالْقَشْدَةَ، وَمِنْ حَدِيقَتِهَا
الْخَضَرَ وَالْفَاكِهَةَ، وَمِنْ دَجَاجِهَا الْبَيْضَ.

٣ - بَدْءُ الْكَرَاهِيَةِ

وَكَانَتْ «أُمُّ عَرِيذَ» (وَاللَّيْزُ يُدْمِنُهُ: الْحَيَّةُ) تَمْنَحُ كُلَّ طَائِفَةٍ - مِنْ
هَذَا - فِي مَشْتَبِهِ أَوْ سَلَةِ، ثُمَّ تُثْقِلُ ظَهْرَ بِيَا لَا أَطِيقُ حَمْلَهُ. وَلَا تَكْتَفِي
بِذَلِكَ، بَلْ تَجْمَعُ - إِلَى ثِقَلِ هَذِهِ السَّلَالِ - ثِقَلَ جِسْمِهَا السَّوِينِ. ثُمَّ
تَأْتُرُنِي بِالذَّهَابِ إِلَى السُّوقِ - وَهِيَ عَلَى مَسَافَةِ طَوِيلَةٍ مِنْ بَيْتِهَا - وَفِي يَدَيَّهَا
عَصَا طَوِيلَةٌ لَا تَقْطَعُ تَلَوُّحَ بِيَا، بَيْنَ حِينَ وَآخِرَ، ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تُهَوِّىَ
بِهَا عَلَى جَسَدِي بِلا مُسَوِّغٍ. وَهِيَ تَطُنُّ أَنَّهَا تَسْتَحْشِي عَلَى مُضَاعَفَةِ الْجَهْدِ،
وَالْإِسْرَاقِ فِي الْمَدْوِ (الْجَرَى)، فَلَا يَزِيدُنِي ذَلِكَ إِلَّا حِفْظًا عَلَيْهَا وَغَيْظًا مِنْهَا.

٤ - نَتِيجَةُ الْقَسْوَةِ

وَتَمَّتْ حَقْدُ الصَّامِرِ عَلَى صَاحِبِهِ، فَتَقَنَّ فِي مُمَاكْسَتِهِ، فَحَادَ عَنْ الصَّرَاطِ
السَّوِيِّ (الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ)، وَلَمْ يَأَلْ جُهْدًا (لَمْ يُقْصِرْ) فِي مُسَابَقَتِهِ،
وَتَنْصِمِ عَيْنِهِ. وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ. فَصَدْتُ (قَصَدْتُ) أَنْ أَعْرِجَ بِهَا (أَمِيلَ)
بِهَا مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، يَمْنَةً وَيسَرَةً. وَهِيَ تُعَاوِلُ بِعَصَاهَا أَنْ تُصْلِحَ
مَافَسَدَ مِنْ أَمْرِي، فَلَا أَزْدَادُ - عَلَى الضَّرْبِ - إِلَّا عِتَادًا وَحِرَانًا،
أَغْنَى: أَنِّي كُنْتُ أَفِئ وَلَا أَتَعَادُ لَهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

٥ - نَتِيجَةُ الْبُخْلِ

وَكَانَتْ «أُمُّ عَرِيذَ»: تِلْكَ السَّيِّدَةُ النَّصَفُ - إِلَى قَسْوَتِهَا - شَدِيدَةً
التَّقْيِيرِ (الْبُخْلِ)، فَلَا تُعْطِينِي مِنَ الْغِنَاءِ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا يُمْكِنُ أَوْدِي (يُرِيْلُ
تَكْمِي)، مَعَ أَنَّهَا فِي سَمَةِ مِنَ الرِّزْقِ، وَخَفِضَ (لَبِنَ) مِنَ اللَّبَنِ. فَتَرْتَضُّ
(اِتَّقَطَّرَتْ) بِهَا الدَّوَارِزُ، وَتَحْفَرُ (تَهَيَّأَتْ لِلْوُثُوبِ) رَغْبَةً فِي الْإِنْتِقَامِ.
وَذَلِكَ يَوْمَ، لَبِيتُ أَنْ تَسْقِيَنِي وَتُعْطِيَنِي، مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ.
فَلَمْ تَكْذُبْ تَقْدِئَتِي - وَكَثَرًا قَدْ بَلَّغْنَا السُّوقَ - وَتَذَمُّبُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا،

حَتَّى دَفَعَى الْجُوعُ وَالظَّمَأُ إِلَى مِشْنَةِ الْخَصْرِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا مُضْطَرًّا ،
وَأَكَلْتُ مَا تَحْوِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْكُرْبِيِّ .

وَلَمْ أَكْذُ أَتَعْبِي مِنَ الْكُرْبِيِّ نَبْذَ الْأَخِيرَةِ حَتَّى عَادَتْ « أُمُّ عَرِيدَ » فَلَمَّا
رَأَتْ مَا حَلَّ بِهَا مِنَ الْخَسَارَةِ ، صَرَخَتْ مُوَلَّوَةً ، كَأَنَّمَا لَدَفَتْهَا ذَاتُ الْفَقَارِ
(الْقُرْبُ) بِزُبَانِهَا (وَالْإِبَانَى : قَرْنُ الْقُرْبِ) وَأَسْرَعَتْ « أُمُّ عَرِيدَ »
إِلَى تَتَوَعَّدُنِي بِالْوَيْلِ ، وَتُتَذَرُّنِي بِالْهَلَاكِ .

٦ - عِقَابُ النَّيْمِ

وَأَشْتَدْتُ حَيْرَتِي وَإِذْتِيَاكِ حِينَ رَأَيْتُهَا مُقْبِلَةً عَلَى بَعْضَا غَلِيظَةٍ ، وَهِيَ
تَهَالُ (تَتَابَعُ) عَلَى مَرْبَا وَشَفَا ، وَتُقْسِمُ لَتَقْتُلَنِي جَزَاءَ مَا اقْتَرَفْتُ مِنْ إِثْمِ
(ذَنْبِ) كَبِيرٍ ، وَتَكِيلُ - مِنْ السَّيِّئِ وَالشَّائِمِ وَعِبَارَاتِ التَّخْفِيرِ لِي
وَلِأَبْنَاءِ جَنَسِي الْأَفْرَاقِيِّ وَالْأَبْعَدِيِّ - مَا لَمْ يَكُنْ لِيَدُورُ لِي عَلَى بَالٍ .

فَدَزَّكْرْتُ - حِينَئِذٍ - كَلَامًا سَمِعْتُهُ مِنْ صَدِيقٍ لَوْلَدِهِ هَذِهِ السَّيِّدَةِ ،
اسْمُهُ : « هِشَامٌ » وَهُوَ طَالِبٌ مِنْ أَذْكَيَاءِ الطُّلَّابِ . وَلَسْتُ أَعْلَى إِذَا قُلْتُ :
إِنَّهُ أَذْكَى مِنْ كَثِيرٍ مِنْ نَجَبَاءِ الْخَمِيرِ الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ فِي حَيَاتِي . وَكَانَ هَذَا

الطُّالِبُ يَتَلَوُ كَلَامًا جَيِّلًا مِنْ كِتَابِ الْخَفُوطَاتِ ، وَيُنْشِدُهُ مُنْجِبًا بِمَنَاهُ ،
حَتَّى زَوَّيْتُهُ عَنْهُ وَحَفَظْتُهُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَوْلُ « النَّتَبِيِّ » : أَحَدُ حُكَمَاءِ الْإِنْسِ
وَشُعْرَاهِمِ الْمُجِيدِينَ :

« إِذَا أَنْتَ كَرَّمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ ، وَإِنْ أَنْتَ كَرَّمْتَ الْكَلِيمَ تَرَدَّدَا »

٧ - تَمَنُّ الْجُودِ

فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ الدَّفَاعِ عَنْ نَفْسِي ، وَالِاشْتِقَامِ مِنْ « أُمِّ عَرِيدَ » لِمَا
أَلْحَقْتُهُ مِنَ الْإِهَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنَسِي . وَرَفَعْتُهَا رَفْعَةً قَدَفْتُ بِهَا إِلَى الْأَرْضِ ،
وَأَلْقَيْتُ بِهَا فِي غَيِّبَوَةٍ . مَا أَحْسَبُهَا أَفَاقَتْ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ . وَكَانَ هَذَا جَزَاءَ
وَفَاقًا . فَلَوْ أَنَّهَا شَكَرَتْ لِي حَسَنَ خِدْمَتِي ، وَلَمْ تَنْسَ أَنْ تَقْدِمَ لِي طَعَامِي
وَتُرَابِي ، لَطَلَّاتُ لَهَا - مَا حَبِيتُ - عَبْدًا شَكُورًا .

٨ - فِي الْيَحْفَةِ

وَأَشْتَقَلَّ مِنْ فِي السُّوقِ بِإِسْنَابِ « أُمِّ عَرِيدَ » . وَرَأَيْتُهَا فُرْسَةً
لِلْمَرْبُوبِ ، وَمَا زِلْتُ أَجْرِي حَتَّى بَلَغْتُ الدَّارَ . فَاسْتَقْبَلَنِي أَبْنَاؤُهَا وَزَوْجُهَا
مَذْهُوشِينَ . وَتَسَاءَلُوا عَمَّا لَحِقَ بِصَاحِبِي ، وَكَيْفَ رَجَعْتُ بِنَفْسِي .

وَأَقْسَمَتِ آرَاؤُهُمْ - فِي أَمْرِي - وَاخْتَلَفَتْ !

وَبَعْدَ قَلِيلٍ رَأَوْا صَاحِبِيَّ وَهِيَ فِي حَالٍ يُرَى لَهَا مِنْ الْأَلَمِ وَالشَّغَبِ ،
وَقَدْ حِيلَتْ فِي مِحْفَةٍ (وَالْمِحْفَةُ : مَرْكَبٌ لِلنِّسَاءِ كَالْهُودُجِ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا قُبَّةَ
لَهَا) . وَسَمِعْتُ أَوْلَادَهَا يَتَوَعَّدُونِي بِالْقَتْلِ . وَكَانَ أَبُوهُمْ يَقُولُ لَهُمْ :
« عَاقِبُوهُ كَمَا تَشَاوُونَ . وَلَكِنْ اخْذَرُوا أَنْ تَقْتُلُوهُ . وَالْأَمَاعُ مَعَهُ عَلَيْنَا
بِلَا حَاطِلٍ (بِقِيَرٍ فَائِدَةٍ) . »

٩ - فِي النَّابَةِ

فَرَأَيْتُ الْعَزَمَ فِي الْفِرَارِ . وَمَا زِلْتُ أُعْدُو (أَجْرِي) - جَهْدَ طَائِفِي -
حَتَّى غَبِثَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ . فَلَمَّا امْتَنَأْتُ إِلَى السَّلَامَةِ ، وَأَمِنتُ شُرُورَهُمْ
وَأَذَيْتَهُمْ ، وَاصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغْتُ أَجْمَةً فِيهَا جَذُولٌ صَافٍ مِنَ الْمَاءِ .
فَأَكَلْتُ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا الْيَمِيرِ (الْثَّاجِعِ الرَّائِي) .
ثُمَّ أَسْلَمْتُ أَجْفَانِي لِلنُّوْمِ حَتَّى لَاحَ (ظَهَرَ) الْفَجْرُ .

١٠ - بَنَاتُ وَازِعٍ

فَسَمِعْتُ - فِي هَذِهِ النَّابَةِ - بِالطَّمْسِ أَنْتَهَ ، بَعْدَ أَنْ أَمِنتُ أَذِيَّةَ تِلْكَ

الْأُسْرَةَ الْقَاسِيَةَ الْقُلُوبِ ، وَلَمْ يَدْرُ بِخَلْدِي (لَمْ يَحْطُرْ بِإِلَى)
أَنْ رِكَابَهَا قَدْ افْتَقَتْنِي (تَتَبَعْتَنِي) وَاعْتَدَتْ بِأَنْ تَارَ أَقْدَامِي
إِلَى الْمَسَاكِنِ الَّتِي يَتَمَتُّهُ (قَصْدُهُ)
فَلَمَّا سَمِعْتُ نُبَاحَهَا أَذْرَكْتُ
الْخَطَرَ الَّذِي يَدْعُمُنِي (يَنْشَاقِي)
إِذَا تَلَسَّكَاتُ (أَبْطَاطُ وَتَوَقُّتُ)



فِي الْهَرَبِ . فَاسْرَعْتُ إِلَى جَذُولٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّابَةِ ، فَسَبَعْتُ (نَحَمْتُ)

فِيهِ حَتَّى تَنْقَطِعَ آثَارُ أَقْدَامِي، فَلَا يَهْتَدِي قَصَاصُ الْأَثَرِ إِلَيْهَا. وَسَمِعْتُ
صَوْتَ أَبْنَاءِ «أُمِّ عَرَبِيدَ» وَهُمْ يَتَصَايَعُونَ غَائِبِينَ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ
لِلْأُخْرَى: «هَلَمْ - يَا بَنَاتِ وَارِجَ - فَمَزَمْنِ لَحْمَ حِمَارِنَا الشَّرِسِ الْأَنْهَبِ
(الْمَذْنَبِ)، وَأَخْضَرْتَهُ إِلَى الْأَذْوَى دِرِّي (سَوَاطِي) مِنْ دَمِهِ، جَزَاءَ
مَا اقْتَرَفَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ.

١١ - اخْتِلَافُ الطُّنُونِ

فَتَا كَدَ (بَتَتْ) لِي - جِيئَنِي - أَنْ أَخْقَادِمَ عَلَى لَا تَزَالُ نَابِيَةً،
وَأَنْتُمْ لَنْ يَفْنَوْا - فِي مُمَا قَبَنِي - بَنِي إِبْلَاحِي وَتَقَطِّيعِ أَوْسَالِي. فَحَكَرَنِي
ذَلِكَ إِلَى مُضَافَةِ جُهْدِي فِي السَّحَابَةِ. وَمَا زِلْتُ سَابِحًا حَتَّى اقْطَعْتُ أَصَوَاتَ
الْكِلَابِ، وَأَسْبَحْتُ بِمَا مِنْ مِنْ غَدْرِهِمْ وَتَشْكِيلِهِمْ لِي. فَخَرَجْتُ مِنْ
الْقَنَاقَرِ، ثُمَّ وَاصَلْتُ السَّيْرَ عَلَى الشَّطِّ الْأَخْرِ مِنْهَا حَتَّى بَلَغْتُ رَبْعًا فَيَسِيحًا،
فِيهِ مَرْمَعِي خَصِيبٌ حَافِلٌ بِالْبُرْسِيمِ الشَّيْءِ. وَقَدْ عَدَدْتُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ
مَوْزًا تَزْفِي فِيهِ. فَانْتَحَيْتُ جَانِبًا مِنْهُ وَأَكَلْتُ مَا شِئْتُ، حَتَّى - إِذَا حَلَّ
الْمَسَاءُ - سَمِعْتُ رَجُلًا يُحَدِّثُ صَاحِبَةً مِنْ تَرْكِ الثَّيْرَانِ فِي الْفَرَاءِ

(فِي الْخَلَاءِ)، حَتَّى لَا تَتَرَمَّضَ لِخَطَرِ الذَّنَابِ الَّتِي اقْتَرَسَتْ حِمَارُ
«أُمِّ عَرَبِيدَ».

وَسَمِعْتُ الْآخَرَ يَقُولُ لَهُ: «لَقَدْ عِشْتُ عُمْرًا طَوِيلًا فِي هَذِهِ الثَّانِيَةِ
فَلَمْ أَسْمَعْ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ دَخَلَهَا، وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّ أَوْلَادَ «أُمِّ عَرَبِيدَ» تَتَلَوُّهُ
- اتِّعْلَامًا لِأُمِّهِمْ مِنْهُ - ثُمَّ أَذَاعُوا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الذَّنَابَ قَدْ خَطَفْتَهُ.»
فَرَأَيْتُ هَذَا الْحَدِيثَ طَوِيلًا، لِأَنِّي - فِيهَا أَعْلَمُ - أَخْبَرُ وَأَعْرِفُ مِنْ
كُلِّ أَحَدٍ، بِأَنْ حِمَارَ «أُمِّ عَرَبِيدَ» لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الذَّنَابَ لَمْ
تَرَهُ وَلَمْ يَرَهَا، وَلَا عَرَفْتَهُ وَلَا عَرَفَهَا قَطُّ.

١٢ - فِي حَقْلِ الْبُرْسِيمِ

وَهَكَذَا بَدَأْتُ فِي حَقْلِ الْبُرْسِيمِ الْعَالِي، وَأَسْأَلْتُ جَفَنِي لِلْكَرَى
(أَغْمَضْتُ عَيْنِي لِلتَّوْبِ). وَقَدْ أَخْفَتَنِي عِيدَانُ الْبُرْسِيمِ الطَّوِيلَةِ عَنْ
كُلِّ عَيْنٍ.

وَمَا زِلْتُ نَائِيًا حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. فَلَسْتُ تَقْطَعُ - وَمَا كِدْتُ أُمُّ
فَطُورِي - حَتَّى سَمِعْتُ نُبَاحًا يَنْبِئُ مِنْ كِلَابِ الْخَفَرِ الَّتِي تَحْرُسُ

الْتِيرَانِ فِي أَثْنَاءِ رَغَبِهَا . وَكَانَتْ التَّيْرَانُ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ حَظِيرَتِهَا . وَخَشِيتُ أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي لِمَا لَا تُحْمَدُ عُقَابُهُ . فَأَنْسَلْتُ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى بَلَغْتُ غَابَةَ بَعِيدَةٍ عَنْ هَذَا الْمَرْجِ الْعَصِيبِ ، حَيْثُ يَقِيتُ نَائِمٍ الْبَالِ ، أَكْثَرُ مِنْ شَهْرِ مِنَ الزَّمَانِ .

١٣ - التجوزُ الوداعةُ

وَجَاءَ فَصْلُ الْبَرْدِ ، فَجَبَّتِ الْحَشَائِشُ الْخُضْرَةَ ، وَغَاضَ الْمَاءُ (قَلَّ وَتَقَاعَ) ، وَأَصْبَحْتُ مُرَمَّصًا لِأَخْطَارِ الْجُوعِ وَالظَّمَا وَالْبَرْدِ . وَشَعَرْتُ بِوَحْشَةِ التَّمَرُّلِ ، وَسَدِغَةِ الْوَحْدَةِ ، فَأَتَزَرْتُ (اخْتَرْتُ) الثَّعَابَ إِلَى الْقَرَى ، وَالتَّمَرُّضَ لِأَذْيَةِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ ، عَلَى الْهَلَاكِ جُوعًا وَعَطَشًا فِي تِلْكَ الْعَابَةِ الثَّانِيَةِ (الْبَيْدَةِ) .

فَذَهَبْتُ أَتَسَيَّفُ (أُسِيرُ فِي الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ مُدَى) حَتَّى بَلَغْتُ إِحْدَى الْقَرَى . فَرَأَيْتُ عَجُوزًا جَالِسَةً أَمَامَ دَارِهَا - وَهِيَ تَقْرُلُ - وَقَدْ بَدَتْ عَلَى سِيَاهَا (رَمَاهَا) أَمَارَاتُ الْوَدَاعَةِ وَطَيْبُ النَّفْسِ . قَبِمْتُ (قَصَدْتُ) نَحْوَهَا ، حَتَّى إِذَا دَانَيْتُهَا (قَارَبْتُهَا) وَصَلْتُ رَأْيِي عَلَى كَيْفِهَا . فَظَهَرَ عَلَيْهَا

شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ . وَلَكِنْ سُرْعَانِ مَا اطمأننتُ وَأَخْلَدْتُ إِلَى النَّقْعِ ، حِينَ رَأَيْتُنِي سَاكِئًا هَادِنًا . فَتَبَدَّلَ اِزْيَابُهَا (شَكُّهَا) حَقَّةً ، وَخَوَّفُهَا اطمئنانًا . وَأَقْبَلْتُ عَلَى تَوْسِئِي (تَوْصِيئِي بِالصَّبْرِ) وَتُرْبَّتُ وَجَعِي قَائِلَةً : « لَقَدْ شَاخَ حِمَارِي » « دُكِّنَ » وَأَسْلَمَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ إِلَى الْهَلَاكِ ، فَمَاتَ مَأْسُومًا عَلَيْهِ ، وَتَطَلَّتُ أَعْمَالِي مُنْذُ أَيَّامٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الدَّهَابَ إِلَى الشُّوقِ ، لِتَبِيعِ مَا لَدَيْ مِنَ الْغُصْرِ وَالْيَنْبُسِ وَالزُّبْدِ . وَلَكِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَطْفَهُ أَذْرَكَانِي ، قَبِمْنَا إِلَى هَذَا الْجِمَارِ الْوَدِيعِ . فَلَا بُحْتُ أَوْلَا عَنْ أَصْحَابِهِ لِأَشْرِيَةِ مِنْهُمْ ، وَإِلَّا أَبْغَيْتُهُ عِنْدِي حَتَّى أَهْتَدِيَ إِلَى مَالِكِيهِ . »

١٤ - مُدَاعَبَةُ الْخَفِيدِ

وَكَأَنَّمَا سَمِعَ خَفِيدُهَا شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهَا مَعِي ، فَخَرَجَ مِنَ الدَّارِ بِسَالُهَا عَنْ أَمْرِي ، فَأَخْبَرْتُهُ بِحَالِي الْأَمْرِ (بِحَقِيقَةِ الْخَبَرِ) . وَكَانَ الطِّفْلُ فِي السَّاعَةِ مِنْ عُمُرِهِ ، فَلَسْتُ أَذْنُ جَدَّتَهُ فِي مُدَاعَبَتِي (مُسَارَحَتِي) فَقَالَتْ لَهُ : « بَطْهَرُ أَنَّهُ حِمَارٌ وَدِيعٌ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ اطمئنانَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ نُجَرِّبَهُ . فَأَقْرَبْتُ مِنَ الطِّفْلِ ، وَلَحَسْتُ يَدَهُ مُتَرَفِّقًا وَلَبِئْتُ - حَيْثُ أَنَا - سَاكِئًا لَا أَتَحَرَّكُ . فَازْدَادَ اطمئنانُ الْجَدِّ وَخَفِيدُهَا إِلَى . »

١٥ - السُّنُونُ الْأَرْبَعُ

ثُمَّ قَالَتِ الْجَدَّةُ لِجَدِيدِهَا «عِصَامُ» : «اذْهَبْ إِلَى السُّوقِ وَطَلْعْ بِه
أَرْجَاءَ الْقَرْيَةِ (تَوَاجِهَا) وَيُوتِهَا. فَإِنْ كَانَ لَهُ صَاحِبٌ فَلَسْهُ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا
فَقَدْ (ارْجِعْ) بِه إِلَيْنَا ، لِنَرَى مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ !»

فَمَضَى «عِصَامُ» أَمَامِي ، وَتَشَيْتُ خَلْفَهُ . ثُمَّ حَلَا لَهُ الرُّكُوبُ ، فَلَمْ
يَجِدْ مَنِي غَيْرَ الْوَدَاعَةِ . وَطَافَ بِي أَنْهَاءُ الْقَرْيَةِ ، وَسَأَلَ كُلَّ مَنْ فِيهَا ،
فَلَمْ يَلْعَزُلِي عَلَى صَاحِبِهِ . وَبَقِيتُ عِنْدَهُمْ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ أَرْبَعِ . وَقَدْ سَمِعْتُ
يَهُيْمَ - كَمَا سَمِعُوا بِي - وَقَبِيتُ مِنْ زِلَاجِهِمْ - فِي الْعَيْفِ - بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ
الْفَضَلَاتِ الَّتِي لَا يَأْكُلُهَا الْبَقَرُ وَالْعِجْلُ : مِنْ الْعَشَائِشِ وَقُشُورِ الْخَضِرِ .
وَفِي الشَّتَاءِ يَبْغُرُ مِنَ الشَّعِيرِ ، أَظْفَرُ بِهَا حَفَنَةً بَعْدَ أُخْرَى (وَالْحَفَنَةُ : مِلَّةٌ
الْكُفِّ) ، وَاسْتَأْتِ مِنْ وَزْنِ الْكُرْبِ ، وَبَقَا مَا يَسْتَنْوُونَ عَنْهُ ، مِنْ قِشْرِ
الْبَطَالِيسِ وَالْكُرَاتِ : وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ النَّفَايَاتِ (مِنْ رَدِيهِ
الْأَشْيَاءِ) .

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا أَشْكُوهُ مِنْ هَذِهِ الْخِيَامِ الْجَدِيدَةِ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا ،

هُوَ : اضْطِرَارُّ سَيِّدَتِي - بِسَبَبِ قَرْمَا - إِلَى أَنْ تُعِيرَ لِي بَعْضَ الصَّبِيَّةِ ،
لِيَتَزَوَّجُوا فِي مَقَابِلَةِ مَا يَذْفِقُونَ لَهَا مِنَ الْأَجْرِ . وَلَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَعْضِهِمْ
شَيْئًا مِنَ الْإِغَاثِ (الْمَشَقَّةِ وَالْجُحْدِ وَالشَّدْوِ) بَيْنَ جَيْنٍ وَآخَرَ .

١٦ - الْحَبْرُ الْمَهْدُمُ

وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ يَوْمًا اسْتَأْجَرَنِي - مَعَ خَمْسَةِ مِنْ رِفَاقِي (صِبَاحِي) -
سِتَّةَ أَوْلَادٍ ، لِيَتَزَوَّجُوا بِنَاتِي الْعُقُولِ وَالنَّرَاجِي . وَتَسَابَقْنَا ، فَكُنْتُ أَسْبَقُ
الصَّحَابِ ، وَأُسْرِعُ مِنْ جَرِيئَا ، حَتَّى بَلَّغْنَا جَبْرًا مُتَدَاعِيًا (مُتَهَدِّمًا) ، فَوَقَفْتُ
عَنِ السَّيْرِ حَتَّى لَا أَهْوِي (لَا أَشْقَطَ) بِرَاكِي فِي الْمَاءِ . فَانْهَالَ عَلَى ذَلِكَ
الْمَيِّ النَّبِيَّ بِعَمَاءٍ يَسْتَحْثِي (يَسْتَحْثِي) بِهَا عَلَى السَّيْرِ ، فَلَمْ أَزْدَدْ إِلَّا
حُرُوفًا . وَحَاوَلْتُ أَنْ أُعِيرَ لَهُمْ عَنِ الْخَطَرِ الَّذِي يَمْرُسُونَ لَهُ ، فَتَهَيَّئْتُ ،
وَعَزَّزْتُ رَأْسِي وَذَيْلِي ، وَذَيْتُ بَقَوَانِي عَلَى الْأَرْضِ ، وَهَزَّزْتُ عِدَّةَ مَرَاتٍ
فِي الْهَوَاءِ . فَلَمْ يَخْطُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى شَيْءٍ وَمَا أَرِيدُ ، وَلَمْ يَخْطُوا عَنِّي
- لِتَبَاوَيْهِمْ - مَا كُنْتُ أُغْنِيهِ (أَقْصِيهِ) .

١٧ - نَجَاءُ الْفَرِيقِ

عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَنْبُتُوا أَنْ تَكْشِفُوا غُفْلَتَهُمْ
وَسَخَطَهُمْ، حِينَ انْدَفَعَ بِحِمَارِهِ طِفْلٌ غَيٌّ مِنْهُمْ
اسْمُهُ «الْوَكُوكُ»، لِيَجْتَازَ الْجَبْرَ. وَلَمْ يَكُنْ



يَفْعَلُ حَتَّى هَوَى (سَقَطَ) بِهِ إِلَى الْمَاءِ. فَسَبَّحَ (عَامَ) الْجَمَارِ حَتَّى بَلَغَ
الشَّاطِئَ، وَأَشْرَفَ الصَّبِيُّ عَلَى الْفَرَقِ. وَصَاحَ الْأَوْلَادُ مَذْعُورِينَ (خَائِفِينَ)،

وَحَاوَلُوا إِنْقَاذَ «الْوَكُوكِ» جَاهِدِينَ. وَكَانَ أَحَدُهُمْ - وَهُوَ ابْنُ صَبَّارٍ -
يَحْمِلُ مَعَهُ - لِحْشِنَ الْحَطِّ - شَبَكَةَ الصَّيْدِ إِلَى أَبِيهِ، فَأَلْقَاهَا عَلَى «الْوَكُوكِ»
وَرَأَحَ يَجْذِبُهَا - مَعَ رَفَاقِهِ - لِيَنْقِذُوهُ مِنَ الْفَرَقِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ
سَبِيلًا. وَخَشِيتُ أَنْ يَمْرُقُوا مَعَهُ، فَجَحَّيْتُهُمْ (صَرَفْتُهُمْ عَنْهُ). وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ،
فَشَدَدْتُ الشَّبَكَةَ بِأَسْنَانِي إِلَى الْبَرِّ.

١٨ - عَهْدُ الْإِنْسَانِ

فَأَذْرَكُوا بُعْدَ نَظَرِي حِينَ أَحْبَبْتُمْ عَنِ السَّبْرِ فَوْقَ ذَلِكَ الْجَبْرِ
الْبَاطِلِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى يَتَوَدَّدُونَ (يَتَحَبَّبُونَ) إِلَيَّ. مُعْتَذِرِينَ عَنْ فُرْطِ جَهْلِهِمْ
(شِدْقِ جَهْلِهِمْ). ذَلِكَ عَهْدُ (زَمَنُ) لَا أَنْسَاهُ. وَقَدْ مَرَّ بِي عَلَى عِلَاتِي (عَلَى
كُلِّ حَالٍ) إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، كَمَا تَمُرُّ الْأَحْلَامُ.

١٩ - أَبْنَضُ الْأَيَّامِ

وَكَانَ وَالِدُ الطِّفْلِ: «عِصَامٌ» جُنْدِيًّا، فَلَمَّا عَادَ إِلَى بَيْتِهِ أَمَرَ أَنْ يُنْقَلَ
- بِأَسْرَتِهِ - مِنَ الرَّيْفِ إِلَى الْقَدِيدَةِ. وَاضْطُرَّ - حِينَئِذٍ - إِلَى بَيْتِي
لِيَمْنُسَ الْأَهْلِينَ. وَكَانَ صَاحِبِ الْجَدِيدِ يُزْمِنُنِي (يَحْمِلُنِي عَلَى مَا لَا أُطِيقُ)،

وَكُلِّفْنِي مَا لَا أَسْتَطِيعُ، وَلَا يُيَالِي مَا أَنُوهُ بِهِ (مَا يُعْجِزُنِي)
مِنْ الْأَهْوَالِ .

قِتَارَةُ أَخِيْلُ السَّادَةِ، وَرَمَّةٌ أَخِيْلُ أَكْدَاسَا لَا أُطِيقُ حَمْلَهَا مِنْ مِشْنَانِ
النَّخْرِ وَالْبَيْضِ وَالْبُجَيْنِ - وَمَا إِلَى ذَلِكَ - نِسْبَةُ .

وَكَانَتْ أَيَّامُ السُّوقِ أَتَمُّنُ أَيَّامَ حَيَاتِي، لِأَنَّ صَاحِبِي يَتَرَكُنِي - فِي
أَتَانِهَا - بِلَا طَلَامٍ، مِنْ وَقْتِ الصَّبَاحِ إِلَى وَقْتِ الْأَمِيلِ، وَلَا يَذْكُرُنِي
إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَبِيعَ كُلَّ مَا جَلَبَهُ (أَحْضَرَهُ) .

٢٠ - فِي بَعْضِ الْحَفَرِ

وَكَانَ - فِي عُمُودِهِ (جُحُودِهِ) وَنُكْرَانِيهِ الْفَجِيلِ، وَنِسْبَانِ حَتَّى
عَلَيْهِ - يَذْكُرُنِي بِـ « أُمِّ عَزِيدَةٍ » : تِلْكَ السَّيِّدَةُ النَّصَبُ الَّتِي أَسْلَفْتُ
الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا . فَاشْتَدَّ حِفْظِي عَلَى الرَّجُلِ الْأَنَانِيِّ (الَّذِي لَا يُجِبُّ إِلَّا نَفْسَهُ) ،
وَزَهَّدْتُ فِي خِدْمَتِهِ . فَذَهَبْتُ - لِلْفَخْلَاسِ مِنَ الْقَنَا، (الثَّوبِ) - حُطَّةً
بَارِعَةً، تُرِيحُنِي مِنَ الدُّعَابِ إِلَى السُّوقِ . فَلَمَّا دَنَتْ سَاعَةُ الْخُرُوجِ،
تَغَيَّرْتُ حُفْرَةً وَاسِعَةً فِي مَكَانٍ قَصِيرٍ (بَيْدٍ) مِنَ الزَّرْمِيِّ، يَكْتَنِفُهَا

(يُحِيطُ بِهَا) النَّبَاتُ، فَاخْتَبَأْتُ فِيهَا . وَحَاوَلْتُ الزَّارِعُ وَأَوْلَادُهُ وَأَقْرَبُهُ أَنْ
يَهْتَدُوا إِلَى مَكَانِي، فَغَابَ سَمْعُهُمْ .

٢١ - جِوَارُ الْأُسْرَةِ

وَسَمِعْتُهُمْ يَتَحَاوَرُونَ (يُنَاقِشُونَ) فِي أَمْرِي . وَفَدَّ حَسِيبَ (ظَنَ) صَاحِبِي
أَنْ لِمَا سَرَقْتَنِي . وَخَشِيَ أَنْ تَفْضِيَعَ مِنْهُ فُرْسَةً السُّوقِ، فَشَدَّ إِلَى مَرَكَبَتِهِ
فَرَسًا قَوِيًّا يُدْعَى « ذَا الثَّقَالِ » . وَصَبَرْتُ سَاعَةً، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْ
الْخَفَرِ، وَذَهَبْتُ مُتَمَيِّمًا (قَاصِدًا) الدَّارَ، حَتَّى دَانَتْهَا (قَرُبَتْ مِنْهَا) ،
فَهَبْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي . فَأَتَرَعَجَ إِلَيَّ مَنْ فِي الدَّارِ، وَفَرَحُوا بِخَلَامِي مِنْ
السَّارِقِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيَّ مُتَبَهِّجِينَ مُتَوَدِّدِينَ . وَلَمْ يَكْذِبْ سَيِّدُ الشُّكْرَةِ (صَاحِبُ
الزَّرْعَةِ) بِمُودٍ إِلَى دَارِهِ، حَتَّى أَفَضُوا إِلَيْهِ (أَخْبَرُوهُ) بِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَمْرِي .
فَنَاشَعَتْ أَهْلُهَا (الْقَرَحُ) فِي نَفْسِهِ، وَتَطَلَّقَتْ أَسَارِيرُهُ (خُطُوطُ جَبِينِهِ) ،
وَبَحَثَ عَنْ كُلِّ خَفَرَةٍ فِي سِيَاحِ الشُّكْرَةِ (سُورِ الزَّرْعَةِ) ، فَأَخْكَمَ
سِدَادَهَا، حَتَّى لَا يَسْرِقَنِي الْبَصُّ مَرَّةً أُخْرَى .

٢٢ - بَذَّ الشَّكَّ

فَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السُّوقِ الثَّالِثَةِ ، اخْتَبَأْتُ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ . وَأَعَادُوا بَحْثَهُمْ عَنِّي - كَمَا قَتَلُوا فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ - فَلَمْ يَظْفَرُوا مِنِّي بَحْثُهُمْ بِطَائِلٍ (لَمْ يَحْصِلُوا مِنِّي عَلَى قَائِدَةٍ) . فَأَيَّقَنَ صَاحِبِي أَنَّنِي لَنْ أَعُودَ إِلَى الدَّارِ - بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ - وَقَالَ لِابْنَتِهِ (لَاوَلَادِهِ) وَأَهْلِيهِ ، فِي لَهْجَةِ الْآسِفِ الْخَرِينِ :
«لَقَدْ أَفْلَتَ (هَرَبَ) مِنِ الْاَلَصِّ - فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى - فَتَرَبَّصْ بِوَ الْاَلَصِّ (اتَّظَرْ بِهِ ، وَصَبِرْ عَلَيْهِ) حَتَّى أَوْقَعَهُ فِي حِيَالَتِهِ (شَبَكَتِهِ) ، وَمَا أَظْلُهُ يَنْجُو بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا .

فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنَ الْحُفْرَةِ ، ظَلَمْتُ أَدْعَى الْعَشَائِشِ فِي التُّرَرْعَةِ حَتَّى وَقَعْتُ أَبْصَارَهُمْ (أَنْظَارَهُمْ) عَلَيَّ ، فَلَمْ يَشَوْا إِلَيَّ - فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ - وَلَمْ يَشَوْا (لَمْ يَفْرَحُوا) . وَبَدَتِ الْحَيْرَةُ عَلَى سِيَاحِهِمْ (ظَهَرَتْ عَلَى مَرَامِهِمْ) وَغَامَرَهُمُ الشَّكُّ فِي أَمْرِي ، فَصَافَعُوا مِنِّي يَقَطُّنَهُمْ ، وَسَبَّحُوا عَلَيَّ بِرُاقَبَتِهِمْ حَتَّى لَا أَخَادِعَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

٢٣ - اقْتَضَحَ السَّرَّ

فَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السُّوقِ ، وَاخْتَبَأْتُ فِي الْحُفْرَةِ - عَلَى عَادَتِي - مَا لَنِي (خَوْفِي وَفَرَعِي) مَا سَمِعْتُهُ مِن صِيحَاتِ سَيِّدِي ، وَمِنْ تُبَاجِ كَلْبِي ، وَهُوَ يُنْزِيهِ ، وَيُخَيِّرُهُ فِي أَمْرِي ، وَيُوصِيهِ بِأَنْ يُنْزِقَ جِلْدِي وَلَحْيِي ، حَتَّى يُخْرِجَنِي مِنَ الْحُفْرَةِ . وَرَأَيْتُ كَلْبَهُ : «ابْنُ وَازِعٍ ، مُلْكِي أَمْرُهُ ، فُتِحِي عَلَى جِسْمِي عَصًا وَتَمْرِيقًا فَلَمْ أَرِ بُدًّا (لَمْ أَجِدْ مَقْرَأًا) مِنَ الْخُرُوجِ .

٢٤ - عِقَابُ الْهَارِبِ

وَمَا كِدْتُ أَفْعَلُ ، حَتَّى تَلَقَّانِي سَيِّدِي بِدِرَّتِيهِ (ضَرَبَنِي بِسَوْطِهِ) ، فَأَلْهَبَ جِسْمِي . وَلَمَّا سَقَى غَلِيلُهُ (غَيْطَهُ) مِنِّي أَعَادَنِي إِلَى الزَّرِيَّةِ . وَسَاءَ ظَنُّهُ بِي - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - وَأَحْفَظُهُ عَلَيَّ مَا قَمَلْتُ (جَعَلَهُ يَحْفَظُ) ، فَتَادَى (اسْتَمَرَّ) فِي إِهَانَتِي (إِذْلَالِي) وَتَخْيِيرِي وَالْإِذْرَاءِ بِي (تَنْقِصِي) .

٢٥ - مُبَارَاةٌ فِي الْبِنَادِ

فَلَمْ يَرُدَّنِي بِقَسْوَتِهِ إِلَّا تَمَادِيًا فِي الْبِنَادِ وَالْعَيْطِ . فَأُجِجْتُ أَمْرِي عَلَى الْإِنْتِقَامِ . وَأَقْسَمْتُ لَا تَنْصَنَّ عَلَيْهِمْ عَيْشَهُمْ (لَا كَدْرُنَ حَيَاتِهِمْ) كَمَا تَمُصُّوا

عَلَى عَيْشِي ، وَلَأَذِقْنِيهِمْ فِي كَمَا أَشْفَوْنِي بِهِمْ (لَأَجْلَبُنَّ عَلَيْهِمُ الشَّوْءَ ، كَمَا جَلَبُوهُ عَلَى) . فَلَمْ أَتْرُكْ - مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فُرْصَةً تَسْنَحُ (تَقْرِضُ) لِلتَّشْكِيلِ بِهِمْ (لِإِبْذَائِهِمْ) . إِلَّا ائْتَهَرْتُهَا ، وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا . فَلَمْ أَلْ جُهْدًا فِي تَحْرِيبِ مَرَدَعِيهِمْ وَإِفْسَادِ حَدِيقَتِهِمْ وَأَكْلِ شَجِيرَاتِهَا ، وَالتَّهَامِ ثَمَرَاتِهَا ، وَتَقْيِيلِ أَرَانِيهَا وَدَجَاجِهَا ، وَفَسْ خِرْفَانِهَا وَنَجَاجِهَا ، وَإِلْقَاءِ كُلِّ مَنْ يَرْكَبُنِي مِنْ أَطْفَالِ الْيَوْمِ . حَتَّى ضَجَرُوا بِي ، وَيَسْأَلُونِي إِصْلَاحِي . فَلَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةً لِلْخُلَاصِ مِنْ شُرُورِي إِلَّا أَنْ يَيْمُونِي ، وَيَشْتَرُوا بِشَيْ جِمْارًا آخَرَ .

٢٦ - بَقِيَّةُ السَّيِّدِ الْجَدِيدِ

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَخَسَّنُوا مُعَامَلَتِي ، وَصَافَعُوا الْعِنَايَةَ بِأَمْرِي . فَتَنَحَوْنِي مِنَ الزَّادِ (الطَّعَامِ) أَطْبَعًا ، وَأَرَاخُونِي مِنْ عَنَاءِ التَّمَلُّ ، حَتَّى يَمَسُونَا مَمْنًا كَثِيرًا حِينَ يَيْمُونَنِي . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ اسْتَرَدَدْتُ (اسْتَرْجَعْتُ) قُوَّتِي ، وَسَمِعْتُ بَعْدَ هَؤُلَاءِ ، وَقَوِيْتُ بَعْدَ ضَعْفٍ . فَكَفَفْتُ عَنْ إِبْذَائِهِمْ حَتَّى أَسْلَمُونِي إِلَى سَيِّدٍ آخَرَ .

وَكَانَ لِذَلِكَ السَّيِّدِ صِبْغَةٌ جَمِيلَةٌ كَرِيمَةُ النَّفْسِ ، يُطَبِّقُ فِعْلَهَا عَلَى أَسْمَائِهَا .

فَقَدْ كَانَتْ تُدْعَى «إِحْسَانًا» ، وَلَوْ مُثَلَّ (لَوْ مُؤَرَّرَ) الْإِحْسَانُ شَخْصًا لَكَانَ لِأَمَّا .

وَأَقْبَيْتُ عِنْدَهَا حُطُورَةً (حَطًّا) ، فَأَحْبَبْتَنِي ، وَعَيْنَيْتُ بِأَمْرِي ، وَلَمْ تَأَلْ جُهْدًا فِي الْإِحْسَانِ إِلَيَّ . وَابْتِ أَنْ تُتَادِيَنِي إِلَّا بِأَحَبِّ الْأَلْقَابِ وَالْكُنَى إِلَيَّ . فَاخْتَارَتْ لِي كُنْيَةً تُطْلَقُهَا عَلَيَّ ، تُشْكِرُنِي بِهَا ، وَتُكَبِّرُنِي شَأْنِي . فَصَارَتْ تَدْعُونِي «أَبَا تَوَلَّى» - مُنْذُ حَلَلْتُ عِنْدَهَا - وَهِيَ أَحَبُّ كُنْيَةٍ يَتَعَرَّضُ بِهَا جِنْسُنَا النَّافِعُ الْكَرِيمُ : مَنْ يَنَالُ «شَحَاجَ» وَ«زِيَادَ» وَأَبْنَاهُمَا الْأَعْرَاضَ .

٢٧ - لَيْلَةُ الْحَرِيقِ

وَرَمَتْ الْأَيَّامُ هَيْبَةً مُتَأَقِّبَةً ، وَسَيِّدَتِي «إِحْسَانُ» تَزِيدُنِي - مِنْ بَرِّهَا وَعَطْفِهَا - مَا يَنْهَجُ قَفِيصِي ، حَتَّى حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ (مَا لَمْ يَنْطَرُقْ عَلَى الْبَالِ ، وَلَمْ يَدْرُ بِالْعِلْمِ) . فَبَقِيَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، انْتَبَهْتُ (اسْتَيْقَظْتُ) مِنْ نَوْمِي مُتَفَرِّعًا مَذْعُورًا ، وَسَمِعْتُ صِيحَاتٍ عَالِيَةً تَلْبَيْتُ مَذْذُوبَةً فِي الْفَسَادِ ، تُرَدُّ : «الْحَرِيقُ . الْحَرِيقُ» . وَرَأَيْتُ دُخَانًا وَنَارًا يَفْتِيحَانِ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ

بَيْدَهُ . فَهَزَّزْتُ وَهَالَيْ (فَزَعَنِي) مَا أَنَا قَائِمٌ عَلَيْهِ .

وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْحَبْلِ - الَّذِي شَدَدْتَنِي بِهِ إِلَى الرُّبُطِ - فَحَرَسْتُ بِأَسْنَانِي عَلَى عَجَلٍ . وَحَاوَلْتُ الْخُرُوجَ مِنَ الْخُطْبَةِ (الرُّبُوبَةِ) . فَرَأَيْتُ بِأُفَّا مُمْغَلًا (مُغْفَلًا) . فَذَكَّرْتُ - حَيْثُ - سَبَدَنِي «إِحْسَان» . وَدَهَشْتُ كَيْفَ تَنَسَّانِي فِي وَقْتِ الشَّدْوِ ، وَتَذَكَّرْتُ فِي سَاعَةِ الرَّخَاءِ .

٢٨ - سَاعَةُ الْخَطَرِ

وَمَا كَادَ يَمُرُّ بِيَالِي هَذَا الْخَاطِرُ حَتَّى رَأَيْتُهَا تَفْتَحُ بَابَ الْخُطْبَةِ ، وَتَخْرُجُ فِي مُسْرِعَةٍ إِلَى الْغَلَاءِ . كَيْفَ أُنْسَى لَهَا ذَلِكَ الصَّبِيحَ (الْمَعْرُوفَ) ؟ لَقَدْ جَازَفَتْ (خَاطَرَتْ) بِنَفْسِهَا - فِي سَبِيلِ إِفْغَازِي - وَعَرَّضَتْ حَيَاتَهَا لِلْهَلَاكِ ، لِتُنَجِّنِي مِنَ عَذَابِ الْخَرَبِ . وَاسْتَدَّ الْأَهْمَبُ ، وَاقْتَرَبَ الْخَطَرُ مِنْ كَلْبِنَا ، وَكَادَتْ النَّارُ تَكْتَنِفُنَا (تُحِيطُ بِنَا) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

٢٩ - مِنْطَقَةُ الْأَهْمَبِ

وَأَغْبَى عَلَى الصَّبِيَّةِ - مِنْ هَوْلٍ مَا نَعَرَّضْتُ لَهُ - وَكَادَ يَخْتَفِئُ الدُّخَانُ . فَلَمْ أَجِدْ مَنَاصًا (مَقَرًّا) مِنَ النَّشْبِثِ (التَّلَاقِي) بِبَيَابِهَا ، وَالْقَبْضِ

بِأَسْنَانِي عَلَى جِلْبَابِهَا ، وَالْخَرَبِ بِأَفْصَى مَا اسْتَطِيعُ مِنْ مُسْرِعَةٍ ، وَأَنَا أَخْذَرُ - جُهْدَ حَلَاكِي - أَنْ تَمْلُقَ النَّارُ بِأُفْرَافِ ثَوْبِهَا ، وَأَتَمَّتْ لَوْ فَدَيْتُهَا بِنَفْسِي مِنَ الْهَلَاكِ .

٣٠ - الشَّجَاةُ مِنَ الْحَرِيقِ

وَمَا زِلْتُ أُجْرِي حَتَّى اجْتَرْتُ - بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَسْيِيرِهِ - مِنْطَقَةَ الْأَهْمَبِ ، وَوَضَعْتُهَا إِلَى جَانِبِ جَذْوَلٍ مِنَ الْبَاءِ . فَلَمْ تَلْبَثِ الصَّبِيَّةُ أَنْ أَفَاقَتْ مِنْ إِبْغَائِهَا ، وَشَكَرَتْ لِي مَا شَدَدْتُ إِلَيْهَا مِنْ صَبِيحٍ (مَا قَدَّمْتُ لَهَا مِنْ مَعْرُوفٍ) ، وَأَنَا أَوْدُ لَوْ اسْتَطِيعَ الْكَلَامُ ، فَأُسَوِّغَ لَهَا - مَا فِي أَهْلِهِ مِنَ النِّعَاءِ وَالشُّكْرِ - عَلَى مَا سَلَفَتْ إِلَيَّ مِنْ جَبِيلٍ لَا أَنْسَاهُ مَا حَيَّيْتُ .

٣١ - نَوْمٌ عَمِيقٌ

وَمَا زَالَتْ النَّارُ تَشْتَلِلُ ، حَتَّى أَتَتْ عَلَى كُلِّ مَا تَحْوِيهِ السُّمُومَةُ مِنْ دُورٍ وَخُطَايَا (يُتَوَاتَرُ وَذَرَائِبُ) .

وَكَانَتْ لَبَّةً هَائِلَةً (مُخِيفَةً) . فَلَمْ تَلْبَثْ «إِحْسَان» أَنْ نَامَتْ عَلَى الْعِشَائِثِ لِتَسْرِجَ مِمَّا بَذَلَتْهُ مِنْ عَنَاءٍ . ثُمَّ أَخَذَنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ ،

وَبَعْدَ قَلِيلٍ اسْتَسْلَمْتُ لِيَوْمٍ عَرِيْقٍ . وَمَا زِلْنَا نَالِيَيْنَ حَتَّى لَاحَ مَوْتُهُ الْفَجْرِ ،
فَلَسْتُ بِظَلَّتْ . وَرَأَيْتُ الصَّيْحَاتِ قَدْ هَدَّأَتْ وَالْثِيْرَانِ قَدْ خَمَدَتْ ، فَتَلَطَّطْتُ حَتَّى
أَبْغَطْتُ سَيْدِي . فَلَمَّا أَفَاقْتُ دَخَنَتَا مَتَا إِلَى الدَّيْهَا ، فَابْتَهَجَا لِجَانِبَاهَا . وَلَسِيَّامَا أَلَمَ
بِهِمَا مِنَ النَّسَارَةِ ، وَكَانَا قَدْ يَكْسَا مِنْ عَوْدَتِهَا إِلَيْهَا ، وَحَسِبَا مَا دَخَبَتْ طَعْمَا لِلثَّارِ .

٣٢ - خَرَابُ السَّيِّئَةِ

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرْثِيَّةُ ضَعِيفَةَ الْجِسْمِ ، تَنْتَابُهَا الْأَمْرَاضُ - بَيْنَ حِينٍ
وَأَخَرٍ - وَقَدْ أَسْلَمَهَا الْجَهْدُ (شِدَّةُ التَّسَبُّبِ) إِلَى الْخُمَى . فَاسْتَقَلَّ أَهْلُهَا
بِأَرْضِهَا ، وَفَرَّزُوا الْمَوَدَّةَ بِهَا إِلَى التَّيْدِيَةِ لِشُرَفِ الْأَطْيَاءِ عَلَى فَتَاهِيمِ ،
وَيُسْتَوَا بِشِفَائِهَا . وَأَقْرَبَتْ (خَلَّتْ) السَّيِّئَةُ مِنْ سَاكِنِيهَا . وَلَسُوا أَمْرِي ،
فَلَمْ أَحِذْ لِي - فِي غَيْرِ النَّابَةِ - مَاوِي ، حَتَّى لَا أَهْلِكَ عَطَشًا وَجُوعًا .
وَهَكَذَا مَرَّتْ بِي ذِكْرِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَعَاتِيَةٌ ، بَعْضُهَا مُوَالِمٌ بَيْضٌ ،
وَبَعْضُهَا سَارٌّ بَهِيْجٌ .

٣٣ - مُبَارَاةُ الْحَبِيرِ

وَمَا أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ السَّابِقِ فِي بَعْضِ الْقُرَى . فَقَدْ اشْتَرَكْتُ فِي مُبَارَاةِ

لَا يَقِلُّ مَنْ اشْتَرَكَ فِيهَا مِنَ الْحَبِيرِ عَنْ سِتَّةِ عَشَرَ . وَسَبَقْتُهَا جَيْمًا ، حَتَّى
- إِذَا قَارَبْتُ آخِرَ الشَّوْطِ - أَسْرَعْتُ إِلَى حِمَارٍ شَرِسٍ غَعُوبٍ ، فَتَقَسَّ



عَلَى ذَلِكَ (حَسَدَنِي ، وَلَمْ يَرْنِي أَهْلًا لَهُ) . وَغَاظَلَهُ مَا كَيْدَتْ أَطْفَرُهُ بِهِ مِنْ
شُرَفِ السُّبْقِ ، فَكَمَضَ ذَيْلِي عَفْةً كَادَتْ تُنْذِلُنِي (تُفْسِدُنِي) . وَلَكِنِّي

— عَلَى فَرْطِ مَا أَحْسَنَهُ مِنْ أَلَمٍ — صَافَتْ
مِنْ مُرَغَى حَتَّى سَبَّحَتْ كُلَّ مُنَافِيٍّ تَسْدَى
(تَمَرُّضٌ) لِسِيَاقٍ .

٣٤ - شِجَارٌ مَعَ كَلْبَيْنِ

وَرَأَيْتُ - ذَاتَ يَوْمٍ - كَلْبَيْنِ
كَبِيرَيْنِ يُطَارِدَانِ وَلَدًا مِنْ أَهْلِاءِ الْجِرَانِ ،
وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَسَلَّقَ شَجَرَةً قَرِيبَةً مِنْهُ
لِيَنْجُوَ مِنْ أَدَاهُمَا . فَتَضَعَتْ أَكْبَرُهُمَا



عَمَّةٌ أَوْشَكَتْ أَنْ تُودِيَ بِهِ (كَادَتْ تُهْلِكُهُ) . وَرَأَيْتُ الثَّانِي يُسْرِعُ
إِلَى الطِّفْلِ ، فَيَجْرُهُ بِأَسْنَانِهِ مِنْ رِثَابِهِ . وَكَانَ الطِّفْلُ يُحَاوِلُ - حِينَئِذٍ -
أَنْ يَتَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ ، فَأَوْشَكَتْ ذَلِكَ بِأَسْنَانِي لِأَعْجَزِهِ عَنِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ
عَصَمْتُهُ فِي وَجْهِهِ عَمَّةٌ كَادَتْ تَهْلِكُهُ .

فَنَسَكَّرَ لِي ذَلِكَ السَّيِّئُ مَا أَسَدَيْتُ إِلَيْهِ مِنْ جَبِيلٍ . وَقَصَّ عَلَى إِخْوَانِهِ
مَا حَدَّثَ ، فَازْدَادَ حُبُّهُمْ لِي ، وَتَلَقَّوهُمْ بِي ، مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

الرَّيْثَةُ الرَّابِعَةُ : بَهَارَةُ الْعَابَةِ

كلمات القصة

« نُفِيتُ - فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ - طَائِفَةٌ مِنَ الْكَلْبَاتِ الَّتِي مَرَّتْ بِالْفَارِي مُقَسَّرَةً ، لِيَنْتَهِلَ عَلَيْهِ مَرَايِسَهَا وَاسْتِزَادَ كَارَهَا ، مَتَى شَاءَ . »

شُخُوصُ الْمَتَلَاةِ : أَشْخَاصُ الْكُومِدِيَا
بَرَّحَ بِهَ التَّبُّبُ : أَذَاهُ أَذَى شَدِيدًا
إِفْطَاحُكَ مِنْ سُبَاتِكَ : تَنْبِيهُكَ مِنْ نَوْمِكَ
طَلَّقْنَا نَمْرَاحَ : اسْتَدَ فَرَحُنَا وَنَشَاطُنَا حَتَّى
جَاوَزَا الْقَدْرَ

الْجَبَلُ الشَّايِخُ : الشَّدِيدُ الارتفاعِ
كَرِشُهُ : مَتِيدَتُهُ (وَالْكَرِشُ - لِيَدِي
الْخُفِّ وَالطَّلْفِ وَكُلُّ مُجْتَزٍ -
مَجْتَزَةُ التَّمِيدَةِ لِلْإِنْسَانِ)

وَاجِمٌ : سَاكَتٌ عَابِسٌ الْوَجْهُ مُنْتَمِ
غَالَتِ الْبُرْدُ : شَدَّتْهُ التَّهْلُكَةُ
مَنْلَوْا بِهِ : صَنَعُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ مَا يَلِيقُ الْفُتْرَ
يَسْتَأْزِرُ بِهَا : يَتَرَدَّدُ بِهَا : يَخْصُ غَسَّهَا
كَاسِفُ الْبَالِ : سَمِيُّ الْحَالِ
خَيْلَاوَةٌ : إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ وَكِبَرِيَاؤُهُ

كَادَحٌ : جَاهِدٌ عَسَهُ فِي السَّلَا
بُورُهُ لَنَا السَّادَةُ : يُكْثَرُهَا لَنَا
سِيَّاطٌ : جَمْعُ سَوَّطٍ وَهُوَ : مَا يَضْرِبُ بِهِ
مِنْ جِلْدٍ أَوْ غَيْرِهِ
يَخْتَنِي عَلَى الْقَدْوِ : يَدْعُو إِلَى سُرْعَةِ
الْخُرُوجِ

وَتَشِبُّ سَوَّطُهُ : مَرْفَعُهُ
يَرْجُلُونَ شَمْرَهُ : يَنْشَطُلُونَهُ
تَرَبَّيْتُ : تَحَمَّلْتُ وَانْظَرْتُ
يَتَصَانِمُونَ : يَصْبَحُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ
جَادَةُ الْأَذْبِ : حَرْفُهُ
تَشْجُو السَّامِعِينَ : تَحْزِنُهُمْ
الْقَيْلُ الْغَاسِقُ : الشَّدِيدُ الظُّلَامِ

الْوَسِيرُ : الْمَيْتُ النَّامُ
الذُّعَاةُ الْهَدُوءُ وَالسَّكِينَةُ
الظُّلَامُ الْحَالِكُ : الشَّدِيدُ السَّوَادِ
كَرَّمُ عَنَصَرِهِ : طَيِّبُ أَصْلِهِ
أَصْفَيَانَهُ الْوُدَّ : صَدَقَانَهُ الْإِحْثَاءُ
غَرَمَهُ بِالْإِدْبَارِ : بَاغَى فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ

وَأَعْدَقَ عَلَيْهِ صَنَاتَهُ وَرَقَّتْهُ
تَرَبَّيْتُ ظُهُورِهِمْ : مَشَتْهَا بِالْيَدِ تَحْبِيثًا
إِلَيْهِمْ وَاسْتَجْلَبًا لِمَوَدَّتِهِمْ
أَعْدَهُ مِنْ غَائِلِ التَّرْدِ الْقَارِسِ : نَجَّاهُ
مِنْ شِدَّتِهِ التَّهْلُكَةِ .

أَضْنَاهُ : أَسَفْتُهُ وَأَمَرَسْتُهُ
الْوَادِعَةُ : السَّائِكَةُ الْمَادَّةُ
تَشَقَّتْ جِلْدُهُ : تَفَرَّقَتْ شَمَرُهُ
نَسَلَ الْعُرُوفُ : انْتَشَرَ وَنَسَطَ
أَشْنَانُ الْقَتْلِ : مَقَرُّهَا
يَبْلَغُ مِنَ السَّيْرِ عَيْبًا : جَاوَزَ الشَّنَّ التَّالُوفَةَ
هَلَكَتْ سَقَا : مَاتَ جُوعًا .

أَعْمَالُ جِسَامٍ : عَظِيمَةُ حَيْطَرَةِ الشَّانِ
هَذَانِ الْجَلْبَةُ : تَكَنَّبَتِ الضَّعْفُ
حَالَتُهُ الشَّهَادُ : صَاحِبُهُ الشَّهَرُ
سَبَّيْتُ جَائِيَةً : لَزِمْتُ مَكَانَهَا فَلَمْ تَفِرْ
الْعِلَاطُ الْأَكْبَادُ : الْقَصَادَةُ الْقُلُوبِ .
الشَّهْنَةُ الْقَارِسُ : الشَّدِيدُ التَّرْدِ
تَغْلُوبٌ عَلَى أَغْصَابِهِ : سَرِيعُ الْهَيْبِاجِ .

مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ : مِنَ الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ
 حَاوِلْ بِمَكَانَةٍ : بِذَلِكَ جُهْدُهُ
 قَرِطُ الْإِقْبَاءِ : شِدَّةُ النَّسَبِ .
 الثُّنُونُ : رُمُوسُ الْأَخَاوِيدِ .
 الْأَسْدُودُ : الشَّقْ
 تَسَلَّفَ بِهَا الْأَرْضُ : تَسَوَّى بِهَا .
 يُوَفِّرُ زَادَهُ : يُكَيِّدُ قُوَّتَهُ .
 فِي غَدِهِ : فِي الْيَوْمِ التَّالِي .
 حَقَنَهُ : مَقْدَارُ مِلْءِ الْكَفِّ .
 بَحَثَهُ : بَغَضَ الْغَرَابَ عَنْهُ .
 جَنْ تَسْلِيلِهِ : غَفْلَتَانَهُ وَفَوْتَهُ .
 مَا نَاهٍ بِوَاحْتِصَالِهِ : مَا لَمْ يَلْقَ تَحَلُّهُ
 الْحَوَّ صَحْوٌ : سَمَاوُهُ صَافِيَةٌ لَا غَمٍّ فِيهَا .
 يَرْتَفِدُ شَيْئًا : يَتَأَمَّلُ بَعْضَ الْوَقْتِ .
 غَذَنَهُ بِبَلْبَانِهِ : رَبَّتَهُ بِبَلْبَانِهِ .
 لَبِثَ شَيْئًا : مَكَثَ زَمَانًا قَلِيلًا .
 اسْتَمَرَّ أَدْرَاجًا : اسْتَقْبَلَ لَبِثَهَا .
 الدَّيْمُ : الْكَثِيرُ الشَّيْءِ .
 الْحَافِرُ : الْطَلْفُ عَبْرَ الْمَعْقُوفِ .

الطَّلْفُ : الْحَافِرُ الْمَعْقُوفُ .

النَّبَاطُ : السُّتُومَاتُ الْأَوْتَابَةُ .

تَمَلَّكَهُ الْمَجْبُ : اسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ
 الْفَقْعَةُ .

أَنْيَابُ : أَنْثَانُ مَذْبُوحَةٍ .

يَغْفُمُ الْحَشَائِشَ : يَكْبِرُهَا بِأَطْرَافِ
 أَشْجَانِهِ .

دَمَانَةُ الْخُلُقِ : رَيْنُ الطُّغْرِ .

نَعَادُ السَّرِيرَةِ : مَصْغَاءُ الشَّرِّ الَّذِي
 يُسْمِيهِ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ .

شِدَّةٌ مَا اخْتَلَفَ الْقِسْمُ : مَا أَصْدَتْ نَصِيبُ
 هَذَا مِنْ ذَلِكَ .

أَحْدَاتٌ : أَحْوَالٌ وَشُئُونٌ

وَحَلَّتُهُ : مَا يَحْكُمُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ

تَفَرَّقَتْ : دَفَقَتْ النَّظْرَ

الْبِجَامُ جَسِيهٌ : انْظَامُهُ وَاسْتِوَالُهُ

الْغَابِرَةُ : الْقَدِيمَةُ الْبَاضِيَةُ

نَمَوْتُ : ازْدَادَ جُحْمُ جَسِي

قَسَرًا : كَرَاهًا وَاعْتِصَانًا

الرَّوَاهِدُ : الْأَرْضُ الْمُنْتَصِفَةُ

مِرَاوَلَتُهُ : عَمَلُهُ وَالْقِيَامُ بِهِ

رَأَيْتُهُ أَوَّلَ وَهَلَةٍ : رَأَيْتُهُ أَوَّلَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ
 أَهْلَاسُ بَعْضِ النَّظَرَاتِ : أَخْطِطُهَا بِسُرْعَةٍ

عَلَى غَلَاوٍ

سَارَ قُدَمًا : مَلَ الْبِرَاءَةَ إِلَى الْأَمَامِ

بَاجٍ : حَالِصٌ مِنَ الْأَذَى

أَرْنِي خَالِي : أَرِقْ وَأَعْطِفْ

الْقَمْدُونِيُّونَ : الْمُسْتَعِيلُونَ بِاسْتِحْرَاجِ
 الْمَعْدُونِ

الْقَنْجَمُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ
 الْمَعَادِنُ

رَشِيقٌ : خَفِيفُ الْحَرَكَةِ

هَمَسَ : تَحَدَّثَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ

سَيِّدَةُ نَصَفٍ : امْرَأَةٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْحَدَثِ
 وَالنِّسَبَةِ

الضَّرَاطُ السَّوِيُّ : الطَّرِيقُ الْمُسْتَمِيمُ

لَمْ يَأَلْ جُهْدًا : لَمْ يُعْصِرْ

أُخْرِجَ بِهَا : أُمِيلَ بِهَا مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ

يُقِيمُ أَوْدَهُ : يُزِيلُ نَقْمَهُ .

الْحِقَّةُ : مَرَكَبٌ لِلنَّسَاءِ كَالْمَوْدَجِ ، إِلَّا
 أَنَّهَا لَا قُوَّةَ لَهَا

النَّاءُ النَّبِيرُ : النَّاسُجُ الرَّأْسِي .

لَمْ يَدْرُ بِحَلْيٍ : لَمْ يَحْطُرْ بِأَلِي

اعْتَصَفَ : سَارَ فِي الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ هُدًى

تَوَاصَى : تَوَاصَى بِالضَّرِّ

خَلِيقَةُ الْأَمْرِ : خَفِيفَةُ الْخَبَرِ

الْفُغَايَاتُ : رَدَى الْأَنْهَاءِ

الْإِعْصَاتُ : الْعَقَّةُ وَالْجَهْدُ وَالشَّدَّةُ

عَلَى عَلَائِكُ : عَلَى كُلِّ حَالٍ .

بُرْهَنَةٌ : بَحْثُهُ عَلَى مَا لَا يُطْلَقُ .

مَا يَكُونُهُ بِهِ : مَا يُعْجِزُهُ .

يَتَحَاوَرُونَ : يَتَأَلَّفُونَ

سَيِّدُ الشُّكُوفِ : صَاحِبُ الْفَرَارَةِ

أَفْضَوْا إِلَيْهِ : أَخْبَرُوهُ .

تَرَنَّسَ بِهِ : اسْتَظَرَ بِهِ وَصَبَرَ عَلَيْهِ .

لَمْ يَبْكُوا : لَمْ يَفْرَحُوا .

بَدَتْ عَلَى سِيَامِهِ : طَلَعَتْ عَلَى مَرَامِهِ .

لَمْ يَزِدْ : لم يزد : لم يزد مفرًا .

غاصَّ الماءُ : غارَ فذهبَ في الأرضِ

لَا تَفْنَنَ عَيْشُهُمْ : لا كدُرْنَ حياتهم

لَا تَقْبَلُهُمْ فِي : كما أشفقوني بهم :

لَأَجْلِبْنَ عَلَيْهِمُ الشَّوَاءَ كما جالبوه عَلَى

رَعِيَّةٍ : كغيلة

صَلَفٌ : كبر

يَأْتِي : يَهْتَمُّ

غَضاضَةٌ : ذلة

حُبٌّ جِيمٌ : كثير

قِسْلُهُ : نصيبه

الرَّئِيسُ : القدر

مُتَطَلٌّ : متعطل

مَقَرٌّ : نعلب

نَعْيًا : طلقًا

أَذُنٌ : اقترِب

عَذُوٌّ : جرئ

إِلْتَبَى : امتلك

صَحِيحٌ : قبيح

التَّكْثِيلُ بهم : ايدلومهم

ما لم يكن في الحبلى : ما لم يحضر عَلَى

البل ، ولم يدرُ بالظن

فَتَسَّ عَلَيْهِ : حسده ولم يره أَهْلًا له

أَوْشَكْتَ أَنْ تُودَى بِهِ : كادت تهلكه

شَرٌّ : شديد العرص

أَلَيْكَ : أفساك

أَحْدُكُ

أَجَلْتُ : أذرت

لَا يَهْتَرُونَ : لا يهتدون

بِكَيْفَتِهِ : يحيط به

مُحَرٌّ : طالت حياته

ضَرَعَ : تدَّى

أَطْلَافٌ : حوافر

مُفْعَلٌ : مُتَعَدِّتٌ

وَمُحَرٌّ

جَوَارٌ : مفاشة

يَتَنَبَّعُ : يتكئب

التَّوَدَّدُ : التَّحَبُّبُ

قَابِلَةٌ : جيعا

أَبَاهِي : أخير

شَهْدٌ : عسل

لَا عَرَوْ : لا عجب

لُوبِقُهُ : يُخَفِّقُ

ذَانَةٌ : مُسْتَمِرَّةٌ

هَالَةٌ : فَرَاعَةٌ

الْخَوَرُ : الضعف

صَحَبٌ : ضجّة

أَنْزَكْتُهُ : جهلته

إِنْجَاهُهُ : إصابه

يُنْشَرُ : ينشر شماعه

قِيَّةُ الْجَلِي : أعلاه

عَوْرَهَا : جعلها عورا

الْمُسْكِرَةُ : التزوّعة

مُضْنٌ : مخوض

أَحْلِدُ : أَسْكُنُ

يَكْدُسُ : يجاهد

لَمْ يَطْفُنْ : لم يَنْتَبِهْ

مُتَخَلِّفَةٌ : متأخرة

الْقَنَاءُ : القسب

يُجْدَى : يُفِيدُ

الترى : الأرض

مُدَيَّةٌ : سكين

يَسَاوُرُ : يَنَالِبُ

يَكْفُ : يَنْتَبِعُ

خَارَتْ : ضَمَتْ

خَلَّاهُ : قلبه

وَقَرَّ : أقر

التزقي : التخييف

يَزْكُلُ : يرفق

السن : أخل

الغراء : الخلاء

الأناسي : الناس

السكرى : التوهم

أَرَقِي : ذَقْبٌ مَوْتُهُ

النَّائِيَةُ : البعيدة

النَّائِيَةُ : القربية

عُدُنٌ : إرجفن

التلاد : التلجأ

يَلُوحُ : يَبْدُو

ثَنَّةٌ : هناك

ماه : يبد

رَدَحٌ : مدّة

الشَّتَاءُ : الشَّرَقَة

سَيَّ : وجهه : قبيح

مَتَحَهُمْ : عابس متغير

أَوْقَى : أشرق

أَرَادَاهَا : أسير فيها

الوَعْرَةُ : الصنينة

يُمَارِسُ : يُعَالِجُ

ارتقاؤها : السعود فيها

أَرَأَيْتَ : أكره راحة

الفرث : الإطالة

حَسِبَ : ظن

يَتَيْنٌ : واضح

نَقَمٌ : كره وأسكر

داناه : قرب منه

مُتَالِيَةٌ : متتابعة

راعاه : أفرعه

جَسَدُهُ : جسده

أَهْوَى : نزل

أَتَرَوَى : أُنْكَرُ

أَيْبَى : أطلب

مَوْنَعٌ : خاف

تَرَانَةٌ : ترمين

الفتنة : رأس الجبل

سَلَقَتْ : مضت

الأنثى : التفرق

سِيَّاحٌ : سؤد

نُفْسِي إِلَى : تخير

كابد : قامى وعانى
كوارث : مصائب
مُتَوَرِّد : متأن مفكر
يسبقها : يركبها
يزحفها : يجودها
أنان : حارة
التَوَرُّون : التثيئون
لا ريب : لا شك
ابتدره : أشرع إليه
ينتم : ينم
قصية : بعيدة
لم يحير : لم يرد . لم يرجع
بدت : ظهرت
بفتحي : يفتد
دائته : فارسته
يبدو : يظهر
انصرم : انتهى
فارس : شديد
قامم : مظلم

يؤبرنى : يفضلى
جن الليل : أظلم
يجلله : يعلو
هشت : فرحت
القابران : القديمان
القدامى : القدماء
أغفل : ترك
قوام : أقدام
الغزير : الكثير
خليفة : جديرة
أبتيج : أفرح
يناف : يتساقط
متودد : متجيب
وفير : كبر
مداعب : مخارح
يافع : شاب بائس
لا ينى : لا يكتل
حذب : تعطف
قائمة : حشن
أذناها : أقرها
نبالة خلفه : نجابته
مخصناه : أخلصناه
الوفير : الكثير
الطارق : الزائر
جلية الغبر : حقيقته
تستجبه : تستجله
أعنى : أصيد
مذعور : خائف
عهد : زمن
جلب : أخصر
الغناء : الثعب
قصي : يبد
يكتنفها : يحيط بها
حبيب : ظن
ميمم : فاسد
دانيها : قرين منها
البهجة : القرح
سجاج : سود

طائل : فائدة
أقلت : هرب
حيالته : شبكته
أبصار : أظفار
هاله : خوفه وفزعاه
درته : سوطه
غليل : غيظ
أخفظه : جمه ينفذ
تأدى : استمر
الازراه : التثمن
تسبح : تعرض
الزاد : الطعام
استرد : استرجع
مثل : صور
خطوة : خط
تأمر : تعارب
عمد : قصد
التثبير : البخل
حفعن : زين

تربس : انتظر
تحفر : نهجا للونوب
ذات القفار : المغرب
ربان القرب : قرنها
نحال : تلتاع
ينم : ذنب
بلا طائل : بغير فائدة
أعدو : أجرى
لاح : ظهر
افتناه : تخبه
يتسبه : قصده
يدهمه : يشاه
تلكا : أطا وتوقف
سبح : علم
الأثم : المذنب
تأكده : ثبت
آثر : اختار
سيهاها : مرأها
ارتياب : شك

مداعبة : مخارحة
أرجاؤه : تولى
رفاق : صحاب
اليريد : الحية
متداع : متهدم
لا أهوى : لا أسقط
انقمت : استحققت
الخطيرة : الزريرة
مقلق : مقل
الصليح : المتروك
جازف : خاطر
لا عناس : لا مفر
التثبت : التعلق
أندى : قدم
الجهد : شدة الثعب
أقر : خلا
تذهله : تسير
تصدى : تعرض

فهرست

صفحة

صفحة

تجهيز

٣

١ - مسلاة (كوديا) في الإصطبل

شخص المسلاة

٦

المسلاة

٧

٢ - عالم الإصطبل

الفصل الأول

٤١	أشهر الحمل	٣٨	صوت في الليل
٤١	في عالم الأسلام	٣٨	فرح قساسة
٤٣	الولادة الجديدة	٣٩	سائس الإصطبل
		٤٠	تبادل الإنطاس

الفصل الثاني

٤٩	في الحرات	٤٥	قصيف المزبل
٥١	حديث القزبل	٤٦	أين هم
٥٣	طائفة من المصليات	٤٦	حديث قسائس
٥٤	نمرة المرفقة	٤٨	سهاد قساسة
٥٥	صوت الصباح	٤٩	ذكريات

الفصل الثالث

٥٦	الحواضر والأكلان	٦١	حدث دهمان
٥٧	أستان القواب	٦٢	نشأ أبي نوب
٥٨	حوار الصديقين	٦٤	بده الكرامة
٥٨	أبو نوب	٦٥	نتيجة القسوة
٥٩	أم شعاع	٦٦	نتيجة البخل
٦٠	شكوه أبي زياد	٦٦	عقاب القيم

الخطبة المحنة
بين قسامة وزاد الركب
أبو زياد
سيرة الصديق
بحال الصديقة
من النظام

الفصل الرابع

٦٨	شربة الصا	٧٥	حدث دهمان
٦٩	قبالة الناس	٧٦	نشأ أبي نوب
٧١	نهم عاتق	٧٧	بده الكرامة
٧٢	جهه غير مشكور	٧٨	نتيجة القسوة
٧٣	في محلة القصب	٧٩	نتيجة البخل
٧٤	نهاية كريم	٨٠	عقاب القيم

ثلاثون عاماً
أهم السعادة
سنة الأمان
الصاحب الجليل
في أمال التلال
بداية النشأة

الفصل الخامس

٨٢	قل ثلاثة أشهر	٩٢	حدث دهمان
٨٦	عبر الشيلوحة	٩٣	نشأ أبي نوب
٨٨	في منتصف الشتاء	٩٤	بده الكرامة
٨٨	عائلة الألام	٩٤	نتيجة القسوة
٩٠	أعزس المحور	٩٥	نتيجة البخل
٩١			عقاب القيم

ذكريات الإصطبل
الخطبة الفارقة
صباح التمسك
الأسرة البائسة
عابر سبل
عند مقفل

الفصل السادس

٩٧	أبيض الأيام	٩٧	حدث دهمان
٩٧	في بعض الحفر	٩٧	نشأ أبي نوب
٩٨	حوار الأسراء	٩٨	بده الكرامة
٩٩	بده التمسك	٩٩	نتيجة القسوة
٩٩	اختصاح السر	٩٩	نتيجة البخل
١٠٠	عقاب الحارب	١٠٠	عقاب القيم
١٠١	مباراة في العناد	١٠١	نمن الجسود
١٠١	بنت السيد الجدي	١٠١	في المحفة
١٠٢	ليلة الحريق	١٠٢	في العادة
١٠٢	ساعة الخطر	١٠٢	بنات وأزع
١٠٤	منطقة الغيب	١٠٤	اختلاف الطول
١٠٥	الفتاة من الحريق	١٠٥	في حقل البرسم
١٠٥	نوم صديق	١٠٥	الميجوز الودعة
١٠٧	عراق الضيقة	١٠٧	معاينة الخفيد
١٠٨	مباراة الحبيب	١٠٨	السند الأربع
١٠٩	شجار مع كليلين	١٠٩	الحجر المتهم
١١٠	كلمات الغصة	١١٠	لجاة الفريق
١١١	فهرست	١١١	عهد لايتس